# المُحَارِبُ القَدِيم

◀ **الكتاب:** المُحَارِبُ القَدِيم
◀ **المؤلف:** توفيق باميدا
◀ **التصنيف:** رواية
◀ **الناشر:** دار ملهمون للنشر والتوزيع
◀ **الطبعة الأولى:** يناير 2022
◀ **التصنيف العمري:** E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ **الرقم الدولي المتسلسل للكتاب:** ISBN: 978-9948-458-234
◀ **إذن طباعة:** MC-10-01-2830613

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

◀ **الطباعة:** مطابع Ömür Matbaa –تركيا +902124227600

darmolhimon
www.darmolhimon.com
0097143460891

Darmolhimon | UAE, Dubai,
Silicon Oasis | Park Avenue
Building, Office 405

توفيـق باميـدا

# المُحَارِبُ القَـدِيـم

(مذكّرات مُحارِب من بِلَاد زعير)

ملهمون
MOLHIMON للنشر والتوزيع

إلى...

بوعزّة بن الحسن (المنجدي)...

المحارب القديم.

**"ذلك الوجه الذي بلا دموع، كان الحرب كّلها، والألم كلّه."**

إدواردو غاليانو

**" كم من الإمبراطوريات توارت؟**
**وتغيّرت سلالات،**
**كل الأشياء مئات المرات تغيّرت،**
**ما الذي بقي أخيرًا إلّا الحبّ والإيمان؟**
**ما الذي بقي أخيرًا إلّا أنت يا فاطمة؟ "**

رسول حمزاتوف

**"أيّها المحارب القديم...**

**أعلم أنّ الحكاية هناك بين ثنايا ذاكرتك، فاسمح لي إذًا أن أكتبها نيابة عنك."**

كاتب هذه الرواية

وكأنّ ليلًا ثقيلًا مطبقًا نزل فجأة. غيمة غبار ودخان تلفّني، تحول بيني وبين الأشياء. يضيع سمعي في جبّ عميق. لا صوت، لا همس، غير طنين مسترسل فظيع. هل ما زلت واقفًا على قدميّ، أم تراني جثوت على ركبتيّ، أم أنّي منبطح على الأرض؟ لا يصلني عبر حوّاسي شيء. لا أشعر بجسدي. ذاكرتي تطفو على سطح اللحظة، تظلّ تتمدّد هناك. بينما الزمن كأنّه كفّ عن التقدّم إلى الأمام. يدور بي في دوامة من عدم. أترقّب في الفراغ ومضة ضوء أو طرقًا على باب، هبّة ريح أو نسمة هواء، أن أحسّ بشيء، أن تنتشلني يد إلى الخارج.

لوهلة، تنسلّ الذاكرة، تقفز خارج دوامة الزمن المتوقّف، وترجع بشيء كوميض برق شقّ السماء عند الأفق، فأضاء وجه الأرض الغارق في ليل حالك. أتذكّر أنّي لم أكن لوحدي، أين الآخرون؟ أصواتهم، صيحاتهم؟ أين اندثر صوت الرصاص، وأزيز المدافع؟ بل أين أنا؟ هل أنا حقًّا في جحيم معركة؟ أم طريح الفراش؟ مريض؟ مصاب؟ أم أنّي في كابوس جهنّمي لعين؟ أين خيط الحقيقة الرفيع لألمسه؟

تتراجع حدّة الطنين، فتبدأ أصوات كثيرة، متداخلة، متناثرة، متنافرة، في بلوغ أذنيّ. ويخفّ سواد غيمة السديم التي تلفّني، نحو لون رماديّ غامق تخترقه بقع سود وبنفسجيّة. شيئًا فشيئًا أشعر بجسدي. أوّلًا شعرت بفكّيّ مطبقين على بعضيهما بقوّة، ثمّ شعرت بالأرض تلامس بطني، تلامس قدميّ، وشعرت بثقل الخوذة على رأسي، وبحزامها يشدّ على ذقني. ثم اكتشفت أنّي متّكئ على

مرفقـيّ، وأنّ يـديّ تحمـلان رشاشًـا مصوّبًـا إلـى الأمـام. وبينمـا راح شـمّي يميّز روائح بارود محترق وغبار ودخان أرض تستعر، استوعبت أخيرًا أنّي متواجد داخل خندق، فعادت ذاكرتي تسرد أمامي تفاصيل اللحظـات الأخيـرة: قنبلـة يدويـة سـقطت داخـل الخنـدق.

يصلنـي الآن صـوت فظيـع، صـراخ أحدهـم نالـت منـه القنبلـة إلـى جـواري. أرفـع رأسـي قليـلًا. أنظـر إلـى الأمـام، فـلا أرى غير الغبار والدخـان، عاصفـة مـن الرصـاص تصطدم بأكيـاس الرمـل، ثمّ قذائف مـن راجمـات العـدو التقليديـة تتسـاقط فـي الخنـادق المجـاورة، مزيـد من الصـراخ. النقيب الفرنسي، لوبورجوا، قائد سريّتنا، يصدر أوامره بمغـادرة الخنـادق والتقـدم إلى الأمام. يتلكّأ معظـم الجنود. والصـراخ يصير أنينًا مسترسلًا. الرصاص يجيء من كلّ صوب. تحدث بلبلة في صفوفنـا، أصوات متداخلة واستجداء يصدر عن كلّ الحفر والخنـادق. تبـدأ مدفعيّتنـا فـي القصـف. قنابلهـا تتسـاقط فـي كلّ مـكان. الآن تصيـر احتماليـة إصابتنـا أكبـر. هـل أقـف وأتقـدّم، أم أتريّـث وأواصـل رمـي الرصـاص حتّى وإن كنت لا أستبين الأهـداف؟ أعي الآن جيّدًا أنّ المـوت متربّـص بنـا فـي كلّ مـكان. داخـل الخنـادق وخارجهـا. تنتابنـي رغبـة شـديدة فـي البـكاء، وجهـي إلى التراب، أحسّ بطعمـه اللزج على لسـاني. أعلم أنّ عليّ رفع رأسي إن أردت استطلاع الأمام، والرصاص يستمرّ في الطرق على جدار الرمل، سيكون التفكير فقط في فعل ذلك نوعًا مـن الجنون.

يبـدأ بعض الجنـود بالخروج مـن الخنـادق والتقـدّم إلى الأمام. يفعلـون ذلـك زحفًـا علـى البطون. مـن كان إلى جواري بنفس الخندق؟ النحيلة واعزيز وخمسـة أو سـتة جنود آخرين؟

# الفصـل الأوّل
# زَمَنُ الاغْتِرَابِ

**نوفمبر 2017،**

**بلدة الرماني، زعير،**

حياتي رحلة فرار عظيمة!

عمري اليوم سبع وثمانون سنة. ربما، أكثر أو أقلّ. حسب وثائق الجيش الفرنسي التي بحوزتي هي سبع وثمانون.

أنت تسألني عن زمن الحرب. حتّى قبل أن تسأل، بل حتى قبل أن تجيء، استعددت جيّدا لسؤالك هذا. ابني محمّد، قبل أيّام، أخبرني أنّ كاتبًا ما، سيجيء ليسألني عن الحرب. لكن ما إن بدأت الحكي عنها، حتّى قاطعني محمّد وهو يردّ زمن الحكاية إلى ما قبل زمن الحرب. وأنت أعجبك ذلك. همّك جدّا أن تعرف ما سبق ذلك من أمور وأحداث. أعرف أنّكم يا معشر الكتاب فضوليون، تريدون معرفة كل شيء، وبتفاصيله أيضا. وكلّما ذُكر لكم أمر، حدث أو اسم أو مكان...، إلّا وتسارعون للاستفسار عنه. لقد استوقفتني أكثر من مرّة، لتطرح سؤالًا جديدًا.

لكن، دعني أقول لك شيئا: برأسي ذكريات كثيرة، عدد نجوم السماء، بعضها أجد متعة في استرجاعه وسرد تفاصيله، لكن هناك ذكريات أخرى، لا أحبّ الحديث عنها. لا أحكي عنها لأحد. لا أريد تذكّرها حتّى. ذكريات ثقيلة تكبّلني بسلاسل طويلة، لحدّ الساعة، ما زلت أتوجّع كلّما تذكرتها. أجل، وأنا شيخ هرم هكذا، أتجنّب الحديث عنها. ربما لا يتجلّى ذلك على ملامحي، نبرة صوتي، أو تقلّصات وجهي، لكنّ الألم موجود، يحدث بالداخل، والأنين أيضا، أسمع صداه

خلف أضلع صدري. لقد رأيت من الصعاب الشيء الكثير، على طول حياتي، واجهت القتل والنار والرصاص، رأيت الويلات التي لا تخطر ببال إنسان. لكنّ طفو تلك الذكريات على السطح يجعل ذهني يشرد، نظرتي تضيع في الفراغ، وأنفاسي تشهق أسًى وأسفًا.

أبنائي وزوجتي يعجبهم الحديث عن ذكريات طفولتي. هم نادرًا ما يبوحون بذلك لأحد. لكنّهم فعلوه أكثر من مرّة، بل وعلى مسامعي، لا أنكر عليهم فعل ذلك. أظلّ صامتًا ومصغيًا. وكأنّي في قرارة نفسي، أريد أن يعلم الآخرون بما قاسيته في تلك الفترات من ماضيّ السحيق.

**أواخر شتاء 1946،**
**قبيلة النجدة، زعير،**

## (الذئب)

كانت تلك أوّل مرّة سأخرج فيها بمفردي رفقة القطيع.

أطبق والدي على أذني بإبهامه وسبّابته حتّى كاد يسحقها. رحت أتلوّى برأسي أسفل يده من شدّة الألم، والدموع أحسّ بسخونتها تتجمّع في مقلتيّ. قال لي يصكّ أسنانه:

-"إن عدت بماعزة واحدة ناقصة اقتلعت ضرسًا من أضراسك!"

وما كادت يده تفلتني حتّى هوى بها على قفاي كأنّها ضربة رفش، ارتجّ جسدي، قفزت دمعتان من عينيّ. أغمضتهما بقوّة ثم فتحتهما، فرأيت الشمس تشرق من خلف تلّ مقابل، ثمّ وكأنّها تزيح الظلمة الموحشة عن أطلال قصبة العربي بن بلال، قبل أن تمسح عن وجهي صقيع ليل طويل، وأثر دمع جديد. ورأيت هامة أخي الشركي تدنو منّي، يمدّ عصا طويلة تجاهي. فتراجعت مذعورًا بعيدًا عنه وعن مكان وقوف أبي. لكنّي فوجئت بيده تطبق على ذراعي، بينما قد غرس مقدّمة عصاه في التربة الندية.

-"اسمع جيّدًا! قالها ويده قد خفّت من شدة إطباقها، الذئب عدوّك الأوّل. إن لمحته من بعيد ارشقه بحجر الأرض، وإن دنا من ماعزك حطّم رأسه بهذه العصا!" ناولني العصا، وأكمل: "الراعي بلا عصا كالخيمة بلا أوتاد، إن أصابتها ريح عاصف أخذتها في إثرها."

مسحت أنفي وما فضل من دمع في عينيّ وعلى خدّيّ، ثم مضيت متّكئا على العصا، أدفع القطيع أمامي نحو المراعي البعيدة، المتوارية خلف التلّال، ولا شيء يعبث براحة فكري غير مشهد الذئب يسيل فمه لعابا وهو يقترب من ماعزي، فاعتبرته إذ ذاك كما قال أخي الشركي عدوي الأول.

لم أر الذئب ذلك اليوم، ولا خلال أيامي الأولى رفقة القطيع. اطمأننت، وتراجع هاجس انقضاضه على الماعز، حتّى كدت أنفي وجوده بالجوار أصلًا، لولا أنّي سبق وشاهدته يدنو في أكثر من مرّة، من شعاب الدوار.

لكنّ هذه الطمأنينة المتواصلة كان محكومًا عليها بالزوال. فذات صباح ضبابي، وأنا أقف عند قمة رابية أستطلع ببصري الأرجاء، والقطيع عند سفحها يرتع، بالسهل الذي يكسوه عشب أخضر وأشواك وأشجار سدر مورقة، بلغني صوت جلبة شديد من الجانب البعيد، كانت هناك حركة عنيفة، عنزات وجديان تنطّ وتصيح.

عبر انحدار التلة مضيت مسرعًا، أتأبّط عصاي. كانت سحب خفيفة من الضباب تزحف بين السدرات تحول دون تبيان ما يقع. تقدّمت أكثر، دون تردّد أو إبطاء؛ لأتوقّف على حين غرّة، وأنا أرى أنيابًا حاقدة، تسيل دمًا، تعصر عنق ماعزة. بينما ماعزة أخرى طريحة الأرض، قد برزت أحشاؤها، واختلط دمها بالعشب.

فزعت من هول ما رأيت. شلّتني الحيرة، وغشيت عيناي نجوم بارقة وسواد. لكنّي أنا الراعي، حارس القطيع، الوصيّ عليه. لوّحت بعصاي في الهواء، ضربت الأرض بقدمي. ظلّ الذئب مطبقا

على فريسته، تقذفني عيناه بشرر. بدا وكأنّه يعرفني، حاقد عليّ. هممت لأتراجع خطوات إلى الخلف، لكنّ قدماي تسمّرتا إلى الأرض. ترك الماعزة تهوي صريعة من بين أنيابه. ثمّ لفّ نصف لفّة حول القطيع. كان لعاب لزج قد اختلط بدم يسيل من فمه، وعينان تواصلان رمي باللهب. لكنّي استجمعت رباطة جأشي، وركضت خلفه، أضرب بعصاي الهواء، حتّى جعلته ينسحب عن السهل متواريًا خلف الضباب.

تشتّت القطيع. ودرت حول نفسي دورة كاملة. وجدتني في الوسط. ثمّ صار كلّ شيء يدور كالرحى من حولي. وتخيّلته، بينما الجديان تتقافز في كلّ مكان، راكضا صوبي. ضخمًا في حجم بقرة. وقويًّا كبغل. رشيقًا كحصان.

أفقت من دوختي، ركبتاي ترتعشان، والعرق طوفان على جسدي. ركضت ذات اليمين وذات الشمال ألملم شتات القطيع، ثم سقته أمامي، أرمق بنظرات من حسرة وهلع الماعزتين على العشب والشوك، يغشى سوادَ وبرهما الضبابُ الحليبي الكثيف.

كان أوّل من لمحني أرجع بالقطيع من أهل خيمتنا هو أخي الشركي. كان مائلًا بظهره يهشّم بالفأس جذع شجرة قرب الشعبة، عند مدخل الدوار. توقّف عن الضرب لمّا رآني أهرول عائدًا بالقطيع ضحًى على غير المعتاد. صاح مستفسرًا ما إن صرت في مقابلته:

- "ماذا هناك يا بوعزة؟"

راحت الريح الباردة تلسع جلدي، وتدفع ببدني إلى مزيد من الارتعاش. نكست رأسي. ولم أنبس بحرف.

- "فعلها الذئب بك إذن! كم افترس؟ تحدّث يا بغل! كم؟"

ثمّ راح مندفعا تجاه ؛ شدّني من قبّ الجلباب، عيناه جاحظتان، والزبد يتجمّع على شفتيه، وقد ضاعت نظراتي في لمعان الفأس في يده اليسرى.

هزّني بعنف وهو يكرّر السؤال:

- "كم يا بغل؟"

- "اثنتين." قلتها والدموع أحسّها ساخنة، تحفر خدّيّ الباردين.

## (العقاب)

كبّلني امحمّد، ابن عمّي العربي، من معصميّ، بأمر من والدي، ثمّ ربطني إلى وتد، غير بعيد عن خيمتنا. كانت سيول من الدمع والمخاط تغرق منخاريّ وخدّيّ وأسفل ذقني وتبلغ عنقي. بينما أطرافي تواصل ارتجافها، فيهتزّ جسدي كلّه كأنّه ريشة دجاجة تعبث بها ريح عاصف.

كانت الشمس قد راحت تنقشع من خلف سحب الضباب، عندما أبصرت الشركي يقود أمامه حماره المحمّل حطبًا من جهة الشعبة. ظللت أتابعهما وهما يخترقان حقلًا من البرسيم الأخضر، يصنعان لهما مسلكا بِجَعْلِ سنابله الطويلة تميل إلى الأمام، قبل أن تعود تلقائيا للانتصاب، كما لو أنّي كنت أتوقّع إقدامه على فعل شيء، لمّا يلفي أخاه الأصغر على هذا الوضع المشين.

أوقف الشركي حماره قبالة مربطي، ظلّ للحظات يتأمّل حالتي، ثمّ أشاح بوجهه متجاهلا استغاثة دموعي، وراح يُفرغ حمولة حماره في حفرة الشواء. هويت أنا جالسا إلى التراب أمسح بكمّ جلبابي الصوفيّ الخشن الدموع والمخاط عن عينيّ ووجهي. ثمّ هبّت نسائم لاسعة أثارت غبار الأرض ودفعته تجاهي.

أنزل الشركي المركبين الخشبيين عن ظهر حماره، ثمّ ساقه حتّى أشجار الكاليبتوس خلف الخيمة وقيّده. تابعته يعود إلى حفرة الشواء حاملا كومة من الحشائش، رمى بها داخل الحفرة، قرفص، ثمّ أوقد بها النار. قبل أن يبدأ في فرز عيدان الحطب الرقيقة ووضعا

داخل الكومة المشتعلة. راح شريط دخان أسود كثيف يصعد من الحفرة، وصلتني رائحة الحطب المحترق، ثمّ وصلني صوت أبي يرعد قادما من جهة خيمات الدوار الأخرى. كان رفقته امحمّد. اعتدلت قائما. عادت ركبتاي للارتجاف. توقّفا أمام باب الزريبة. ثمّ فتحاه. انتفض الشركي من وسط خيمة الدخان مهرولًا صوبهما. وسط قطيع الماعز وقف الثلاثة وراحوا يتجادلون. كان صوت والدي طاغيًا على صوتيهما يجلجل الفضاء، فيزيد جسدي ارتجافًا، وعينيّ الدامعتين حيرة وقلقا. وحين فهمت من كلام والدي للشركّي أنّ المعزتين اللتين افترسهما الذئب، تعود إحداهما لملكية سي المعطي، والأخرى للفقيه الآخر سي مصطفى، اصطكّت أسناني ثمّ راح السواد يغشى على الوجود من حولي؛ فوالدي كان يحبّ سي المعطي، فقيه الدوار، وزوج ابنة أختي، ويقدّره، ويفضّله علينا نحن، أنا والشركي، مثل تفضيله لامحمد قريبنا وزوج أختنا، علينا. لذلك كنت أدرك تماما أنّ حادث نيل الذئب من ماعزة سي المعطي لن يمرّ عليّ مرّ الكرام.

خرج والدي من حوش الماعز يتبعه الشركي وامحمّد، لم ينظر أيّ منهم تجاهي، فتنفست الصعداء، ثمّ عادوا إلى داخل الحوش وسحبوا أربع معزات؛ أخذوها إلى جوار الكاليبتوسات وذبحوها، ثمّ علّقوها ونزعوا جلدها، ثمّ أخرجوا أحشاءها... وبدؤوا حفلة الشواء.

جاء المدعوّون إلى المأدبة، يتقدّمهم فقيه الدوار سي المعطي. ثم جلسوا جميعًا على زرابي فرشت قرب حفرة الشواء، قبالة مربطي. وبعد أن قام الشركي وامحمّد بتقطيع المشويات وتلفيفها بأشرطة من شحم البطن الرفيع، وحشو السفافيد بها،

أعادوها للمرحلة الثانية من الشواء. وبعد أن نضجت وطارت رائحتها الشهية تدغدغ أعصاب منخاريّ، وتثير أوجاع بطني الخاوية، قاما بوضع السفافيد على الصواني أمام الضيوف، الذين لم تتردّد أيديهم العريضة كالرفوش في سحبها إلى أفواههم، تلوكها أضراسهم مع قطع من الخبز ورشفات من كؤوس الشاي.

دخلوا جميعًا في سباق افتراس محموم، والدي وأخي الشركي وامحمّد وضيوفهم من أهل الدوار وبعض الصبية. وجلست أنا مقرفصًا، أجول بنظراتي المتحسّرة بين الأطباق والأفواه. لا يصلني من مأدبة الشواء التي يقيمها والدي، غير رائحة بولفاف الزكيّة، وقهقهات ضيوفه المتعالية، ونظراتهم الشامتة، يوجّهونها كلّ حين صوب هذا الصبيّ المقيّد بحبل إلى وتد؛ عقابا له. لأنه لم يستطع تأدية واجبه في الذود عن قطيعه من الذئب.

## (فرار)

قلت إنّي لن أخبر أحدًا بما ينضج في رأسي. ومن عساي أخبر؟ فأنا أسير في زنزانة انفرادية، بينما الآخرون جميعهم حرّاسي اليقظون. إنّي أخشى حتّى من الهمس لنسائم الهواء التي تمسح العرق عن وجهي وأنا واقف على ربوة أحرس قطيع الماعز العظيم من ذئاب الغابة والوادي، فكيف أثق بمن هم مساعدو جلّادي؟ قلت لنفسي: حسنًا، سأفلت بجلدي وإن كان ثمن ذلك هلاكي!

كنّا وقتها نازلين بمكان يدعى (البطيمة)، يبعد لأكثر من عشرة كيلومترات شمال دوّرانا. وهو عبارة عن أرض تشمل جزء من الغابة والنهر في ملكيّة والدي. وكنّا كلّما حلّ الربيع أو الخريف سقنا قطعان مواشينا، وحملنا أمتعتنا، ثمّ نصبنا خيمة لنا في الأرض المنبسطة بين الغابة والوادي؛ لوفرة الكلأ والماء هناك على ما هما عليه بأرض الحوامد، ولا نرجع إلّا مع حلول موعد الحصاد أو بداية الشتاء. يقصد جلّ أهل خيمتنا البطيمة: أنا، والدي وزوجته، أختي وزوجها امحمّد وأبناؤهما. فقط الشركي وأهله الذين يظلّون بالدوار، لرعاية شؤون الأرض والحراسة.

كان الوقت ضحىً. ضحى خريفيًّا، سماؤه رمادية، وأرضه بنيّة تثير غبارها ريح متقطّعة الهبوب. وكان قطيع الماعز الزاحف كأنّه خليّة نمل يغير على نبات الغابة وأوراق أشجارها، حتّى لَإنّه يضطرّ إلى تسلّقها ؛ أو على الأقلّ الوقوف على قدميه الخلفيتين لبلوغ ما على من أغصانها المورقة. وكنت أنا وسطه أهشّ بعصاي على

ما ينفلت منه، وكنت داخله أبدو كجزء منه، كجدي أو تيس. كأنّي لا مرئي بين أعداده التي لا تعد ولا تحصى. وكان أبي في بقعة أخرى من الغابة مقابلة لي، يرعى القطعان الأخرى من أغنام وأبقار والجمل والناقتين. وكنت أراه، أراه جيّدًا رغم تلك المسافة الكبيرة. وكنت أتعمّد زيادتها بعدًا وأنا أخطو في الاتجاه المعاكس، وظللت أرى أبي، أرى وجهه، وأتابع نظرات عينيه اللتين كانتا تنتقلان باستمرار عبر رؤوس مواشيه المتفرّقة في مجموعات، أواصل انسلالي بين جموع ماعزي اللامتناهية، حتّى وجدتني بعد وقت واقفًا خارج القطيع، دون أن أحيد ببصري عن وجه أبي، أراقب سكناته وحركاته، وأترقّب، أترقّب بحذرٍ شديد. حتّى إذا دار هو إلى الجهة الأخرى يستطلع الإبل التي ترعى عند الطرف الآخر، واطمأنّ في وقفته تلك زمنًا. في تلك اللحظة التي تيقّنت فيها أنّه لن يدور الآن، لن يدور تجاهي الآن، ركضت.

هل كنت قد فكّرت في فعل ذلك من قبل؟ خطّطت له؟ حسنًا، ربما جاء عفويًّا. ببساطة لأنّه الحلّ الوحيد الذي كان يبرق أمامي. وأيّ خيار يمتلك مسجون ظلما مسحوقة أيّامه ولياليه بين الأعمال الشاقة والتنكيل غير الرضوخ للأمر أو الفرار؟ لم أنم الليلة التي سبقت يوم ركضتي تلك. ربما نمت ساعات قليلة متقطّعة، ظللت أتقلّب عند مدخل الخيمة حيث يقذفون بي دوما للنوم هناك. أفترش حصيرا وتبنا وقشّا، وأتغطّى بقطعة خيش. كنت قد حشدت نفسي أخيرا بما يكفي من جرأة للإقدام على الأمر.

قبل تلك الليلة كانت الفكرة تراودني في ليال سابقة، لكنّها كانت تعبر كطيف، ألمحه عند الأفق البعيد، قبل أن يتلاشى، حين لا يجد ردًّا من عزيمتي المستكينة. ثم فجأة، ذات صباح عذب النسائم، وأنا محاط بالقطيع الذي يملأ رأسي بأصداء صياحه المتواصل دون انقطاع، شعرت بكتلة من الهواء الحارّ تصعد عبر صدري لتمرّ عبر حلقي، ثم تنفجر كالبركان برأسي، ثمّ قلت بصوت ربما كان مسموعًا: "غدًا أفلت بجلدي!". هكذا غمرني هذا الشعور الغريب الذي جعل عزيمتي المتذبذبة تصير طاقة دافعة بي إلى الإقدام دونما تلكّؤ.

تركت والدي تائهًا وسط رؤوس الماعز وشجر الغابة وركضت. في ذلك الصباح الخريفي لم أحدّد وجهتي، ركضت عبر الغابة دون أن ألتفت إلى الخلف، تركت لقدميّ الحافيتين حريّة اختيار وجهة المسير والمصير. كنت ألهث، أتعرّق، ترتعش فرائصي، أضرب التراب الأحمر والأسود بخطواتي فأثير زوبعة غبار ظلّت تؤنس رحلتي. أتوقّف عند ظلّ شجرة، أستجمع أنفاسي، وأترك النسائم العابرة تجفّف عرقي، لكنّها لا تجفّفه، ولا تمسحه، بل فقط تبرّده، فترتخي عضلاتي، ويخفّف الدم من تدفّقه السريع عبر شراييني. أتّكئ بإحدى يديّ على جذع الشجرة، وأمسح بالأخرى العرق البارد من على جبهتي وعنقي. أشعر بالتعب يرخي خدره على كافّة بدني، فأفكرّ في أخذ قسط من الراحة أسفل الشجرة. لكنّي أتذكّر ظلام وجه أبي وضحكة امحمّد الحاقدة، فأعرض عن الفكرة، وأواصل رحلة النجاة بجلدي.

وجه أبي ظلّ حاضرًا في حياتي، ولم أتخلّص من حضوره الباعث للفزع في أوصالي إلّا بعد زمن طويل. وجه أمّي ظلّ هو كذلك ملازمًا لي، يطلّ عليّ في ليالي الخوف والبرد والحرمان كما يطلّ البدر من خلف شجرة الصنوبر السامقة عند التلة المقابلة لخيمتنا بالدوار. وهو كوجه البدر أيضا، كان وجهًا دون ملامح، قرصا متوهّجًا، أو ربما لأنّ قسماته كانت تتغيّر باستمرار. فأنا لم أستطع أن أختار له ملامح ثابتة. في البداية كنت أتخيّله شبيها بوجه مباركة بنت الخالة هنيّة، إحدى قريبات والدي، والتي كانت تزورنا في مناسبات معيّنة. ربما اخترت ملامحها لأنها كانت تبدو لي جميلة، عطوفة، وبشوشة، وكنت أغبط أبناءها، حين أراها تمسح على رؤوسهم أو تمسك بأيديهم، أو -ولاسيما- حين تضع في أفواههم لقم الطعام. هكذا ظللت أتخيّل أمي، في شكلها وطيبتها وضحكتها، قبل أن تخبرني امرأة من الدوار، أن أمي كانت شبيهة بتلك المرأة التي تمرّ قريبا من دوارنا كلّ يوم سوق، تمتطي حمارًا عاليًا وتلفّ جسدها في ملحف أبيض مطرّز بالأسود والأحمر. أخبرتني بذلك فقط، وتركتني أتربّص بالمرأة كلّ سوق، في ذهاب وإيّاب، أتطلّع لتأمّل ملامحها، للاقتراب من حمارها الذي يبدو في شكله وأنفته كحصان أدهم. وددت لو أكلّمها، لو ألمس نعلها، بل لو أرافقها إلى السوق وأنا جالس على ظهر الحمار البهيّ أمامها، أو لو أستطيع أن أسلّمها نفسي فتأخذني خادمًا في بيتها، وفكّرت ذات يوم، أنها ربما كانت هي أمّي، وأنّ الآخرين يخفون فقط الحقيقة عنّي.

لكنّ وجه أمّي سيتغيّر مرّة أخرى، لمّا صارت زوجة عمّي الحسن، رفقة نسوة أخريات من الدوار، يعترضن سبيلي صوب

المراعي أو عائدًا منها، يمددنني بطعام وقد لحظن بروز عظامي وجحوظ مقلتيّ. زوجة عمّي الحسن، كانت الأكثر سخاءً وعطفًا، تمدّ لي الصحن، تمسح على رأسي وهي تقول:

- "كل يا مسكين! رزق أبيك وافر، وأنت لا نصيب لك منه."

قلت، حسنًا. أمّي مثل زوجة عمي الحسن. حتما ستكون شبيهة بها. رغم أنّ وجه هذه المرأة لا يختلف كثيرًا عن وجوه نساء الدوار، ضامر، غائر العينين، يلفحه قيظ ظهائر الصيف، ويلسعه صقيع صباحات الشتاء.

لكن سرعان ما أنسى كلّ تلك الوجوه، ويعود وجه أمّي، هالة من نور ودفء، يصحب خطواتي، يمسح على شعري ووجهي، ويلامس قلبي. وأنسى الحكاية، أو أتناساها، حكاية أمّي. تلك التي انتهت داخل مطمورة القمح.

حدث ذلك ذات زمن خارج حدود ذاكرتي، يوم جاء العطّار كعادته إلى دوارنا يعرض مبيعاته البسيطة على ظهر حماره البئيس، وكانت زياراته القليلة تلك، تمثّل الشيء الكثير لنساء الدوار، اللائي يخرجن ما إن يبلغهن خبر أو صوت وصوله بلهفة لاكتشاف معروضاته. وخرجت أمّي، في ذلك الضحى البعيد، كحال النساء الأخريات، تحملني أنا الرضيع على ظهرها. وقفت أمام حمار العطّار تستطلع المعروضات البسيطة: مشوط، أسوكة، مناديل، مكاحل... اختارت مشترياتها، لم يكن معها مال، لذلك توجّهت نحو مطمورة القمح، لتقايضه بمكاييل من الحبوب. كان المفروض، أن تفتح أمّي باب المطمورة وتنتظر لساعات قبل الدخول إليها، لشدّة ضغط الهواء

والغبار الحاصل فيها جرّاء انغلاقها زمنًا طويلًا. لكنّها طلبت فورًا من أخي عمر، الذي كان في الثانية أو الثالثة عشر النزول وملأ الكيس قمحًا. ولمّا تأخر عمر في الصعود، تبعته هي دون تردّد، لاستطلاع أمره.

بعد وقت، انتبه أحدهم، قد يكون العطّار أو امرأة من الدوار أو امرأة من أهل خيمتنا، أنّ أمّي قد تأخّرت في الرجوع، فسارعت بعض النسوة إلى المطمورة، وكان جوابهنّ عاصفة من الصراخ والولولة، أخرجونا من هناك، وجدوا أمي وأخي عمر قد فارقا الحياة، أنزلوني مختنقا من على ظهرها، حملني شيخ من الدوار من قدميّ وراح يضرب وجهي - أنفي على وجه الدقة-، على عشب الأرض، يرفع جسدي الضئيل إلى فوق قليلا، بزاوية مائلة، ثم يدفع بي إلى الأسفل لتلامس مقدّمة وجهي العشب الناعم، وكأنّه يكنس بوجهي وجه النبات الأخضر. استمرّ بفعل ذلك إلى أن لفظ صدري الصغير غبار القمح خارجا، وعادت أنفاسي تأخذ مجراها الصحيح.

لقد نجوت بأعجوبة. وكأنّي عدت إلى الحياة من جديد، ولدت مرّة أخرى. كم مرّة سأولد من جديد؟ يقولون إنّ الجنود الخارجين من الحروب مولودون من جديد. أنا خرجت سالمًا من الحرب. لكن كم مرّة نجوت من الهلاك فيها؟ كم مرّة عبر قريبا منّي وابل رصاص؟ سقطت على بعد أمتار منّي قنبلة؟ أصابت موقع مجموعتي قذيفة؟ في كلّ مرة يحدث أمر كهذا وأخرج ناجيًا، أكون قد ولدت مرّة أخرى. حتّى وأنا أركض بعيدًا عن أبي، في ذلك الصباح الخريفي البعيد، شعرت وكأنّي أكتب ميلادًا جديدًا لي في هذا الوجود.

كانت الغيوم قد انقشعت فجأة عن السماء، فبدت في امتدادها الكروي من حولي زرقاء شفافة، تسحبني نحو رحابتها خارج كلّ الحدود، وأنا أوغل في التقدم صوبها أرجو خلاصًا وشيكًا، وانعتاقًا من المكان والزمان اللذين أتركهما خلفي. دون وجهة أمضي، لكن بإصرار فارس مغوار على اختراق خطوط العدو مهما كلّفه ذلك من ثمن.

هل كنت أعرف وجهتي قبل أن أنطلق راكضًا؟ المهمّ أنّي ركضت، ركضت عبر الغابة عكس اتجاه البطيمة، ثم خرجت من الغابة دون الإبطاء من جريتي، أركض وأركض، فأرى الأشجار والحقول والضيعات والربوات والحجارة والدوم والأشواك...، تتراجع على جانبي عينيّ، تختفي وراء ظهري، ولا أنظر أنا خلفي، ثمّ تظهر أخرى، كنت ألهث، وأسمع صوت أنفاسي، وصوت خشخشة أوراق الأشجار والأعشاب اليابسة والأشواك تسحقها قدماي الحافيتان، وأسمع في جوف أذنيّ ركز قلبي المفزوع. لم أكن خائفًا أو قلقًا ممّا قد يلوح في طريقي، أو ما قد يلاقيني في القادم من أيّامي. أبدًا لم يكن هذا يشغلني! بل ما كنت خائفًا منه هو ما قد يتبع أثري، ينبعث من خلف ظهري. كأن تطالني على حين غرّة يد أبي فتوقف حركتي وتسحبني نحو عذاب جديد، عذاب أنكى وأشدّ، أو أن يسوط امحمّد ظهري من فوق حصانه، فيوقعني كطريدة، جاثيًا على ركبتيّ ويديّ، واللعاب يسيل من فمي، كما فعلها بي مرّات ومرّات. فكيف لا أخشاهما إذن بدل مخافة المجهول الذي أنا ملاقيه لا محالة؟ أنا فارّ من جهنّم حمراء، فكيف يجد هذا الخوف من المجهول طريقه إلى القلب المنفطر؟

قطعت وادي زمّور، أو الوادي المالح كما كنّا نسمّيه أيضا، فعرفت أنّي قد ولجت منطقة زمّور الأمازيغيّة، وواصلت المسير، راكضا حينا، وماشيا آخر، في طريقي لاحت حقول بطّيخ أحمر، دخلتها ونلت من الغنيمة ما استطعت، ثمّ واصلت حرث الطريق، حافي القدمين، لا أملك من زاد غير عصاي وجلبابي القصير المهترئ كخرقة. كانت شمس الظهيرة قد بدأت تلفح وجهي ورقبتي. وكنت كلّ حين ألتفت إلى الخلف، أطمئنّ أن لا أحد يقتفي أثري. ولاحت لي عبر الربوات والشعاب خيام ودواوير خيام، قطعان وكلاب ورعاة، وكانت الأرض تنسحب تحت قدميّ العاريتين المغبرّتين، وظننتني تائها في هذه الأرض الشاسعة الغريبة، وخشيت ألّا يوصلني هذا السبيل الذي أسلكه إلى شيء. بيد أنّي لم أكن أمتلك من خيار غير مواصلة المسير. حتّى التوقف لالتقاط أنفاسي اللاهثة كان مضيعة للوقت بالنسبة لي ومثارًا للقلق.

بعد زمن طويل جدّا من المسير المضني، لاحت لي عن اليمين قرية صغيرة، بيوت مبنية متجاورة، متفاوتة الارتفاع، ومتنوّعة الأشكال. توقّفت في مكاني ساهمًا تجاهها، ظللت لوقت محسوس أفكّر وأخمّن، ثم قلت مع نفسي، وأنا أستحث خطاي جهة اليمين: "حسنًا، هذا مكان يصلح ليكون مخبأ لي!".

## (الغريب)

في سنّ صغيرة، وطأت بقدمين حافيتين أرضا غريبة، كانت الشمس قد مالت خلف التضاريس التي تحجب أراضي النجدة، تلفظ ما فضل من يومها على أرض التربة الحمراء.

بدت لي القرية الصغيرة شاسعة وعظيمة، كأنّ أبنيتها وحوش ضارية تتهيّأ للانقضاض، بيوت حجرية متقاربة، مطلية بطبقات سميكة من الجير، تتخلّلها أزقّة ترابية هائلة لا تفضي إلّا لفراغات من غبار متنافرة. أخطو عبرها أستطلع المكان، حتّى إذا غادرت ما يبدو حيًّا سكنيًّا، وجدتني أمام ساحة مستوية تتخلّلها شجيرات قليلة متناثرة، وتؤطرها صفوف من دكاكين بقالة وبضعة مقاهي يفترش روّادها حصائر صفر، يلعبون بالورق وهم يدخّنون ويحتسون الشاي. خلف الدكاكين، انبعث حيّ سكني آخر، أكواخ من قصدير وقصب وخشب وخيش، تتباعد حينًا وتتجاور حينًا آخر. وكانت هناك كلاب ضالة كثيرة، ودجاج ودواجن أخرى ترعى قرب برك من ماءٍ آسن. وكانت هناك حمير مربوطة وأبقار وبعض الخرفان والماعز، حتّى في الحيّ الحجري الأول كانت هناك بهائم ودواجن، لكن هنا كانت الأعداد أكبر، تجنّبت اختراق حيّ الأكواخ هذا، فمضيت جهة اليمين، قطعت ساحة من عشب كثيف وقصير، ثم اعترض طريقي سور أبيض طويل، قمت باللف من حوله، سرت بضع خطوات فوجدتني أحاذي بوّابة ضخمة ذات دفّتين حديديتين، وقفت عندها وألقيت نظرة مستطلعة عبر الشقّة بين الدفّتين. كانت هناك بنايات إسمنتية

منظّمة، مصبوغة بعناية، تتقدّم جلّها سلالم إسمنتية، وترفرف فوق أسطحها أعلام ملوّنة، أبوابها ونوافذها خشبية زرقاء، وأسقفها من قرميد أحمر مائلة. تشكّل تلك البنايات أضلع مربّع شاسع، تتوسّطه ساحة حجرية تخترقها أشجار كاليبتوس وعرعر متفرّقة، وبإحدى زواياها تنتصب سقيفة عريضة تطلّ منها شاحنة عسكرية وعربتا جيب. فتحت فاهي في دهشة، سجّلت الصورة كما هي في ذاكرتي وتركت مسألة الفهم لزمن آخر قادم.

شعرت بالبرد يلسع ساقيّ العاريتين، كانت الشمس قد أفلت، أكملت طريقي جنب السور. بدأ جسدي يرتعش، عند آخر السور لمحت مربط حمير. وإلى جواره تكوّمت حزم من التبن. جلست فوق كومة منه، أصدرت معدتي صوتًا، ضغطت عليها بأصابعي، فكّرت في البحث عن طعام لإسكاتها. وأين تراني سأجده في هذه الأرض الغريبة، والليل البارد المطبق قد نزل على كلّ ركن من أركان الأرض حولي؟ انتابتني وحشة غريبة، وبحلقي علقت غصّة دمع ثقيلة، حشرت جسدي داخل التبن ورفعت بصري حيث نجوم لا متناهية ترصّع وجه سماء حزينة. ظللت أحدّق في خيوط أنوارها المتشابكة زمنا جعل قبّتها تتحوّل إلى هالة نور سحبتني داخلها. بعد هنيهة مالت جفوني، قاومت هذا النعاس اللذيذ، فتحت عينيّ من جديد، توهجّ النور أكثر. وبينما عادت النجوم تلمع أمام نظراتي المتثاقلة رأيت وجه أمّي يملأ السماء. مددت يدي نحوه، فانبعثت يد من نور، شعرت بدفئها تلمس يدي. لم أشأ أن أغمض عينيّ، لكنّ شدة التعب أوقعتني في جبّ من نوم عميق.

استيقظت على صوت أذان انبعث من مكان ما بالجوار، كانت روائح روث الحمير المربوطة قريبًا من مرقدي تملأ الفضاء دفئًا. نفضت التبن عن بدني واقفًا أستطلع سنا الفجر يزحف على امتداد الربى البعيدة. استنشقت بعمق الهواء العذب أمدّ شراييني بطاقة الانطلاق صوب الحياة الجديدة. كان هذا أوّل صباح يطلع عليّ في أرض غريبة، تمشيّت أخبط في الظلام عبر الطريق الذي بدأت السير عبره البارحة حتّى بلغت طرف القرية الجنوبيّ، منه دخلت حيًّا سكنيًّا آخر تتخلّله حقول صغيرة وبساتين وحظائر. صفعت أنفي رائحة أشجار تين، انتفضت حواسي وأطرافي. وعلى ضوء الفجر الخافت أبصرت الشجرة تسدل أغصانها كثيفة الأوراق كخيمة، قرب بيت حجريّ صغير. كان المكان محاطًا بسياج من أغصان وأشواك سدر. لمحت امرأة مقوسة الظهر تعدّ شيئا على موقد نار قرب البيت، قلت هي حتمًا ستنتبه إن حاولت الدخول عبر المدخل الذي يقابل مكان تواجدها. فكّرت في الالتفاف من خلف وتسلّق سياج الأشواك، لكنّي فكرت في وجود كلاب بالداخل قد تُخرج كلّ من في الدار. كان الفجر قد نشر ضوءه بشكل أكبر الآن، فتجلّت لي الصورة أوضح، كان هناك بستان خلف شجرة التين، أشجار رمّان وبرتقال ودوالي عنب تتمدّد على الأرض. وكان هناك بئر وساقية تتخلّل المكان، كانت العجوز قد وضعت إبريق ماء على النار وراحت تكنس الأرض، لم أنتبه لنفسي حتّى وجدتني واقفًا بمدخل الحوش وكلبان ينتفضان في نباح مسعور أمامي، بينما توقّفت المرأة عن الكنس تحدّق فيّ وقد قطّبت جبينها، هشّت المرأة الكلبين بعيدًا، ثم أشارت بيدها إليّ أن أتقدّم خطوت

بلا حذر داخل الحوش، ثمّ أشارت إلى حجر. فهمت قصدها فجلست. مضت العجوز بظهرها المقوس خلف الدار ثم ما لبثت أن عادت بقدر لبن مخيض ونصف خبزة شعير. ارتعشت يداي وهما تستقبلان الطعام. ثم انبريت في لهفة ألتهم الخبز وأعبّ الشارب الطازج.

لمّا امتلأ فمي عن آخره، رفعت رأسي فإذا شيخ بسلهام صوفيّ بنّيّ اللون يدنو من مكان جلوسي يلقي السلام ملوّحًا بيده. سألني:

- "من أيّ بلاد جئت؟"

أجبته وأضراسي تلوك الطعام:

- "دوّار بو عيّاد."

ظلّ يحدّق فيّ مقطّبا دون ردّ. أكملت:

- " قبيلة الحوامد."

- "آه الحوامد. إنها ليست بعيدة عن هنا."

هززت رأسي بالموافقة. قبل أن أرفع قدر اللبن مرّة أخرى صوب وجهي وقد شعرت بسحابة من الأمان تنزل عبر صدري.

- "ولِمَ جئت إلى تيفلت؟"

لم أردّ. وكأنّه يتوّقع نفس الجواب قال:

- "جئت تبحث عن عمل؟"

حرّكت رأسي بالإيجاب.

- "يجيء كثير من شبّان البوادي المجاورة للعمل هنا، في السوق، في الحقول، في البساتين، بل حتى في الرعي."

كدت أن أصدقه الجواب عن سبب مجيئي، لكنّي تداركت الأمر في الحال. واكتفيت بهزّ رأسي.

عندما فرغت من الطعام، وقمت مغادرًا الحوش، وشاكرًا أهله على إنقاذهم لي من براثن جوع طويل، كانت الشمس قد راحت تطلّ من خلف تلّ بعيد، فاندفعتُ بطاقة جديدة بين الفراغات الترابية، في رحلة استكشاف المزيد من الأماكن.

* * * * *

الآن عرفت ما يلزمني القيام به إن أردت الصمود والمكوث في هذه القرية الغريبة: أستطعم الناس، أقف على أبواب الدور ومداخل الأحواش، أقصد ساحة السوق، المقاهي هناك والدكاكين، وتجمعات الناس... لم أكن أفكّر في العمل، اخترت حياة التشرد والتسوّل، ولم أكن أزعج بالي بالتخمين فيما قد تحمله الأيام لي. المستقبل منعدم من ذهني، هناك عذاب عند أهلي في بوعيّاد، وهناك فرار، وهناك قرية غريبة اتخذتها ملجأ. إلى متى هذا الفرار واللجوء؟ لست أدري. لا أفكّر في الأمر حتى. فما يهمّ هو ألّا تطال ظهري جلدات سوط أهلي.

بعد يومين فقط عن مقدمي، اكتشفت ضيعات ضواحي القرية، كان ثمّة بساتين مشرّعة، فواكه تتدلّى من الأغصان، وخضار تنتشر بالأحواض، في غفلة من أهلها كنت أتسلّل بين تكاثف الأشجار. أقطف رمّانًا وعنبًا وتينًا وسفرجلًا وبرتقالًا، أقتلع جزرًا ولفتًا وخيارًا وطماطم وقثّاء... أضع الغنيمة في حجر جلبابي ثم أنطلق واثبًا السواقي وحافّات الأحواض. أحيانًا، ينتبه لي مزارع أو حارس، فيبدأ بالصياح والركض خلفي متوعّدًا، بيده عصا أو معول، لكنّ ساقيّ

العاريتين تجدان حريّة أكبر وقد شددت حجر الجلباب إلى صدري، فتنطلقان في ركض مجنون، لا تتوقّفان إلّا وقد صارتا بي عند قمّة تلّ، على مسافة آمنة من ملاحقي الذي يكفّ عن الركض حين تبدأ قدماه تتعثّران بحرث أو جرف أو أشواك. عبر الإغارة على البساتين، وتسوّل الطعام بالقرية، كنت أضمن الانفلات الدائم من جوع مهلك. وقد صار التصدي للجوع المتربّص بي كلّ يوم، الغاية الوحيدة التي تنعكس على أفق بالي، حين أفتح عينيّ في الصباح، أو حين أحشر جسدي داخل كومة التبن أتهيّأ للنعاس.

لكن، وبعد شهر من إقامتي بتيفلت، وفي الوقت الذي استأنست فيه بالمكان وأضحى الشعور بالاغتراب شيئًا بعيدًا، دعاني صاحب دكّان أمازيغيّ للاشتغال معهً طبعًا، لم أكن لأرفض هذا العرض؛ لأنّ المقابل عن هذا العمل سيكون الحصول على بعض المال أتدبّر به حال جوعي وكسوتي. هذا ما خمنته، غير أنّ ما كنت أحصل عليه في الحقيقة هو بعض الطعام في آخر النهار.

صرت الآن صبيّ سخرة في دكان للبقالة، مهمّتي هي نقل السخرة من الدكان والسوق إلى البيت، ومن البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى بيوت أخرى. أجلس على حجر قبالة الدكان، أنتظر إشارة من معلّمي للقيام بعمل ما، فأضمن بذلك شيئا من الطعام يقدّمه لي حين يكون قد عاد من حانوته إلى بيته مساءً بحيّ البيوت الحجرية المطلية بالجير ناصع البياض. أتربّص به دائما حين يهم بإطفاء قنديل الزيت، وإغلاق دفّة حانوته الخشبية بقفل حديدي ثقيل. أحمل عنه صينية الشاي، أو كيس خيش به بعض السلع. ثم أمضي خلفه

حتى البيت. يتناول منّي الأشياء، يترك الباب خلفه موارباً، أجلس أنا القرفصاء مستندا إلى جذع شجرة الكاليبتوس المقابلة لباب داره. وأنتظر. أحيانا يعود وبيده شيء، وأحينا أخرى يقف عند الباب ويقول:

- "لا طعام لك اليوم."

وأحيانا أخرى يعود، فيقفل الباب دون قول شيء، أو لا يعود هو. بل يرمقني أحد أبنائه الصغار بنظرة حائرة، قبل أن يوصد الباب القصديري الثقيل أمام جوعي. لذلك، لم يكن عليّ التعويل على طعام المعلّم. بل الاستعانة بطرقي الأولى في جلب الرزق: التسوّل والسطو على بساتين الضواحي.

# (فصول)

**الخريف،**

في ذلك الخريف البعيد، ابتلعتني تيفلت ابتلاعًا صهرني لبنة من بيوت أحيائها المتنافرة. كان الشتاء على الأبواب، إذ راحت زخات مطر، وتيّارات هواء باردة تنذر بقدومه الوشيك. لحسن حظّي أنّي انتبهت لذلك مبكّرًا، ففطنت إلى أنّ كومة التبن تلك خلف سور الحيّ الفرنسي لن تقيني، ولا ارتفاع السور، من عواصف الشتاء.

ذات ليلة، قبيل الفجر، أخرجتني من عمق حلم دافئ لذيذ قطرات مطر ثقيلة ارتطمت بوجهي، قمت مفزوعا، كان السواد مطبقا، ثمّ انتفضت في مكاني بينما وابل من الماء البارد نزل فجأة من السماء، ظلّ يرشق قفاي وأنا أخبط خبط عشواء في بقعة ضيّقة، لا أدري إلى أيّ وجهة أرمي قدماي. ثمّ، وبلا تفكير، ركضت، فأنا لم أكن أجيد شيئا كإجادتي للركض. ركضت صوب أقرب شجرة. اتخذت من أغصانها سقفًا، ومن جذعها مستندًا. جلست، ضممت ركبتيّ إلى صدري وأحطتهما بذراعيّ، تكورت على نفسي ما استطعت. كنت أرتعش، أسناني تصطكّ، وجداول من الماء البارد تغسل قفاي وتتسلّل إلى ظهري من تحت الجلباب. ثمّ هبت نسائم لاسعة، زادت بلل جسدي برودة ورجفانه حدّة.

بعد دقائق، توقّفت زخّة المطر، وأخذت معها ريحها الباردة. وقفت وجسدي لم يزل يرتعش، ورحت أنفض الماء عنه، ثم انطلقت صوب مرقدي، أزلت طبقات من التبن المبلّل، إلى أن عثرت على

كيس الخيش حيث أجمع بعض أغراضي وما أدّخره من خبز وغنائم. حمدت الله أنّي وجدت أعواد كبريت ملفوفة في ورق كاغط، لم يمسسها بلل. صعدت جهة مربط الحمير، جمعت بعض التبن الجافّ، ثم عدت إلى مسكني. حفرت حفرة، رميت بالتبن داخلها ثم أوقدت نارًا. راحت النار تلتهم التبن سريعا. فكّرت في أعواد جافة. لكن ومع هذه الزخة الشديدة، لم أتوقّع إيجاد بعضها بالجوار. فاندفعت إلى مربط الحمير، وجلبت هذه المرّة حزمة تبن كاملة.

من احتراق حزمة التبن، والذي لم يدم إلّا دقائق قليلة، أخذت بعض الدفء. لكنّ جلبابي الصوفي المهترئ الذي تشرّب الماء لم يكن قد جفّ بعد. وكانت النار تسير نحو الخمود. لذلك لم أتردّد ونزعته، رغم أنّي لم أكن أرتدي غيره، ثمّ نشرته على سور الحيّ الفرنسي. تناولت كيس الخيش، أفرغته من محتوياته، وبأسناني مزّقت خيوطه حتّى أحدثت به ثلاث فتحات واسعة، ثم ارتديته كأنّه جلباب بلا أكمام. كان خشنا، لكن هذا لم يضايقني مادام قد منحني بعضًا من الدفء المفقود.

حين أشرقت شمس ذلك الصباح، تحجبها طبقة سميكة من الغيوم، طفقت أنا حثيث الخطى، أبحث عن ملجأ آخر. بحثت في الأزقّة والساحات، تحت الأشجار وأسفل الأسوار... ثمّ فكّرت في السُّقُف التي تتقدّم الحوانيت. قلت: حسنا هي ستقيني المطر من فوق، لكنّها لن تصدّ عنّي الرياح والتيارات الباردة التي تهبّ من الواجهة والجانبين، فعدلت عن الفكرة، ثم يئست بعد وقت طويل من البحث في إيجاد مخبأ بالقرية. فانحدرت نحو الوادي، حيث تتناثر

المزارع والبساتين، سرت هائما عبر الشعاب، وكلّما رأيت دغل بستان، أو شجرة تين وارفة الأغصان إلّا ولمعت عيناي: "هنا إذن؟". لكنّ سرعان ما يطير بريق الأمل ذاك بعيدًا، كلّما تذكّرت أنّ ملّاك البساتين لن يسمحوا لسارق بأن يتّخذ بين غلالهم مسكنًا له.

كانت السماء قد ازدادت تلبّدًا بالغيوم، وكان الأفق الرماديّ الداكن البعيد يتشقّق ببروق، وهبّت ريح شديدة ذرت التراب على وجهي. خفق قلبي في فزع رهيب، فأقفلت راجعًا إلى القرية لا ألوي على شيء، إلّا الاحتراز من أن يصيبني وابل جديد، حتّى إذا صعدت قمة تلّ لمحت عن يميني أطلال بيت حجريّ خلف إحدى الربوات، فانحدرت صوبه كجدي في لحاقه بالقطيع. بلغته فألفيته مجرّد زاوية جدارين، بينما هوت إلى الأرض باقي الأجزاء، جثوت أقبّل أرضه، ثم رفعت رأسي شاكرًا الله. قلت: "حسنًا، سيحتاج إلى عمل كثير!". وقبل أن أعتدل واقفًا أصدرت معدتي عزفها المألوف. فأدرت رأسي جهة البساتين وقرّرت: "لن أرجع إلى القرية الآن!".

بعد وقت طويل، عدت من البساتين كما يرجع فارس غانم من معركة، بطني ملأى، وبين ذراعيّ حزمة من الأغصان كثيفة الأوراق. ولحسن حظّي أنّ الغيوم المتكاثفة تباعدت مفسحة لقطع من زرقة السماء أن تظهر، وللشمس أن تطلّ على الوجود. تدفّق شعور عظيم بالارتياح عبر صدري، وسرت الحيوية عبر أطرافي. وكعصفور، شغله الشاغل هو بناء عشّه، انبريت أنشئ سقفا لبيتي، وأخطّط لإقامة جدار بديل. ثمّ اضطررت للصعود إلى القرية، بحثًا عن أشياء تصلح لإنهاء مهمة البناء: قطع خيش، قصدير، حبال، خشب... أيّ شيء

يمكن أن يسدّ الفجوات بين الأغصان، أو يساعد في إنشاء الجدار.

أمضيت ساعات بين التنقيب عن الأشياء وإتمام البناء. كانت الشمس بالكاد قد غربت حين ذهبت إلى مرقدي خلف السور، أجمع أغراضي ومؤونتي، أضعها داخل قطعة ثوب رقيق، ثمّ أقفلت راحلًا صوب بيتي الجديد، تتبعني نظرات الحمير كأنّها تلقي عليّ تحيّة وداع.

كنست أرض ملجئي الجديد بجدائل دوم. ملأت كيس الخيش ببعض الحشائش والأوراق، ثمّ فرشته. أشعلت شمعة، ووضعتها على حجر في الركن بين الجدارين الحجريين. جلست فوق الفراش، وتناولت رغيفًا يابسًا من رزمة الأغراض. بلّلته ببعض الماء، ثمّ تمدّدت، جاعلًا إحدى يديّ تحت رأسي، والأخرى تمدّ فمي بالطعام. تأمّلت قليلًا سقفي المرصوص وقد انعكس على جزء منه ظلّ متراقص، ابتسمت فخرًا بما صنعت، ثم هبّت رعشة سعادة لا متناهية خلف أضلعي، وكأنّ الوجود كلّه اُختزل في بقعتي الصغيرة مثلّثة الشكل هذه، ثمّ رفعت رأسي قليلًا ونفخت على الشمعة.

**الشتاء،**

جاء الشتاء، كما توقّعت، عاصفًا، بمطره وبرده ورياحه. فوجدت بين جدران كوخي مثلّث الشكل العجيب الحماية المرجوّة، وفكّرت كيف كنت سأتصدّى له لو بقيت هناك في الخلاء خلف سور الحيّ الفرنسي، ثمّ ازدادت حدّة البرد مع قدوم "الليالي". ورغم جلبابي الصوفيّ وقطع الخيش التي ألتحفها، والنار التي أوقدها

لبعض الوقت بالليل، ظللت أحسّ بالبرد يلسع قدميّ وظهري، فأمكث أتقلّب في مرقدي دون أن يفلح النوم في مجافاتي إلّا بعد زمن طويل، حتّى الطعام، صرت أجد صعوبة في الحصول عليه أثناء النهارات الماطرة العاصفة، فكان عليّ أن أعتمد سياسة الادخار في الأيّام الأقلّ مطرًا أخرج من جحري كنملة نشطة، مهمّتها جمع ما قدرت عليه من طعام. في المساء لا أعود إلّا بالقليل، لكنّي أحرص على تدبيره للأيام القاحلة التي يصعب فيها الخروج أو العثور على شيء.

لكنّ الحظ أبَى إلّا أن يكون إلى جانبي من جديد. وفكّرت أنّ الله هناك في السماء، يراقب هذا الصبيّ اليتيم الشريد، يرعاه ويحميه. ففي عزّ أيّام البرد هذه حصلت على هديّتين، هديّتان من السماء، كحال هديّة البيت الحجري الذي نبت أمامي فجأة.

شيخ بلحية بيضاء، يقصد تيفلت في بعض أيّام السوق ممتطيًا بغلًا ضخمًا، هندامه يشعّ نصاعة، ويفوح برائحة مسك وعود. عمامة صفراء تعلو رأسه، وتتدلّى من بين أنامله اليمنى مسبحة من عاج، نظرته هادئة متأمّلة، وحين يتحدّث مع أحدهم يوجز، حتى لتحسبه قد صمت، ثمّ يهمس بأذكار بين تسبيح وحمد وتكبير وتوحيد، قبل أن يعود لاستئناف الحديث مع مخاطبيه. يدعونه ب"الفقير". حين سألت عنه أحد خضارة السوق من يكون، قال لي: "إنّه سي امحمد الفقير"، سألته: "ومن أين يأتي؟" قال لي: "من أقاصي زعير."

حين رآني سي امحمد "الفقير"، ذات صباح يوم سوق قارس، أرتعش حافي القدمين عند أحد مداخل السوق، أنتظر أن يمرّ أحد زبائن معلّمي فيمدّني بحبّة فاكهة أو قطعة خبز، أوقف بغله الأشهب

على مقربة منّي. زفر البغل أنفاسه بخارًا، وانتبهت إلى أنّ أسناني توشك أن تقع داخل فمي لشدّة اصطكاكها، ضاع بصري في هيئته البهيّة، وقد اتخذ جلسته المطمئنّة على ظهر دابّته. لم أنبس بحرف، قابل هو حالة الاندهاش التي اعترتني بأن حرّر بسمة خفيفة، ثمّ عقد حاجبيه في حزم، قائلا:

- "ولد غريب عن البلاد والعباد."

ظللت ساهمًا.

- "من أيّ قبيلة أو دوّار أنت؟"

أجبت متلعثمًا وقد وضعت يدي فوق رأسي الذي بات شعره أشعث:

- "من زعير. قبيلة الحوامد."

تهلّل وجهه. ثمّ عاد للانقباض:

- "ولم أنت شريد، بعيد عن أهلك؟"

- "فررت منهم، لما يسومونني من عذاب."

- "ولِمَ يعذّبونك يا بنيّ؟"

- " يعاقبونني كلّما أكل الذئب ماعزة من القطيع.

- "لا إله إلا اللّه!" قالها، ثمّ نزل عن ظهر بغله.

بعينيّ الجاحظتين تابعته وهو يخرج من "الشواري" على ظهر بغله، نعلا أسود من المطّاط. تقدّم نحوي، ثمّ مدّه لي، دون تردّد تناولته، ثمّ مال بكتفه الأيسر، وبيده اليمنى سحب سلهاما صوفيًّا ترابيّ اللون من على كتفيه، ثمّ بسطه على كتفيّ وظهري. نظر إليّ نظرة حانّة، ثم أضاء وجهه بابتسامة جعلت لحيته البيضاء الطويلة

الكثيفة تشتعل نورًا، صعد بغله، ثم لوّح لي بيده:

- "سيكون الشتاء شديد القسوة هذا العام. استعدّوا للبرد كما تستعدّون للعدو! حماك الله يا بنيّ ورعاك! لا حول ولا قوّة إلا بالله... سبحان الله والحمد لله والله أكبر."

تدفّق السلهام الصوفي، دافئ الملمس فوق ذراعيّ حتّى تجاوز المرفقين. ضاعت نظراتي في فروه الناعم، وأريج مسك حرّ يغمرني بشعور لذيذ. قرّبته من وجهي، ومسحت آثار الأسى الملازمة لملامحي الضامرة، فسرى الدفء عبر عروقي. ثمّ قبّلته كنعمة مهداة من الله. حين رفعت رأسي كان بغل الفقير قدّ شقّ طريقه، في ارتفاع وانخفاض، يمضي مبتعدا عن القرية.

**الربيع،**

حلّ الربيع، حاملًا تباشيره. واطمأننت لنجاتي من ضراوة الشتاء، واطمأننت أيضا للإقامة هنا في تيفلت. وبدأت التفكير في طرق أخرى قد تعينني في كسب رزق أوفر. لكنّي لم أكن أتوقّع ما سيحمله هذا الربيع بين ثناياه الدافئة المشمسة، فحين دققت وتد إقامتي بالمكان الذي لم أعد أحسّ بالاغتراب بين ناسه وعمرانه، جاء من يملك القدرة والقوّة على اقتلاعه.

كان يوم سوق مرةّ أخرى. يوم سوق زاخر. شمس دافئة، والحقول المحيطة قد أخرجت زينتها فصبغت امتداد الأرض بلون أخضر، تتموّج نصاعته حسب تفاوت التضاريس وأصناف المزروعات، شدت الطيور، وصاتت الحيوانات مغتبطة، وحلّ المتسوّقون من كلّ

دوار وقبيلة وخيمة... وكنت أنتقل بين الدكان ورحبة البهائم بنشاط وخفّة، أوصل مشتريات هذا وأساعد هذا على وضعها فوق بغلته، وأحضر حمار ذاك... لعلّ أحدهم يجود عليّ بحبة فاكهة أو فرنك أبيض سمين، ثمّ أكون مطمئنًّا أنّ معلّمي لن يفوته مجازاتي في آخر اليوم بوافر الجزاء على ما قدّمته لزبائنه من خدمات.

لكنّ آخر ذلك اليوم لم يجئ، أو بالأحرى لم يحلّ عليّ وأنا بتيفلت. فبينما أنا أمام الدكان، أنتظر أن يتمّ معلمي حساب سلعة زبون حتّى يتسنى لي شحنها في شواري بغلته، اصطدمت نظراتي بوجه مظلم يخترق حشود المتسوّقين، وجه ليس بالغريب البتّة عليّ، وكانت العينان داخل الوجه توجّهان سهام نظراتها شررا نحوي. كم احتجت من الوقت لكي أحدّد هويّة هذه الملامح الحانقة والهامة التي تطوي الأرض بخطواتها الطويلة السريعة تقصدني؟ هل استغرق استيعاب ذلك زمنًا؟ لأنّ قلبي اندفع يرتجّ داخل صدري، بينما عقلي لم يحسم في الأمر بعد. وحين فعل أخيرًا، أحال الوجود من حولي إلى غبار وضباب ورماد. غشاوة قاتمة امتدّت عبرها يد طويلة عريضة ونزلت على كتفي، تقتلعني من الأرض اقتلاعًا.

- "ها؟ قبضتك أيها الكلب!"

انبرى معلّمي متدخّلًا حين شاهدني مجرجرًا على التراب ترافقني غيمة من الغبار:

- "ماذا تفعل يا هذا؟ قالها ثمّ اندفع خارج الحانوت في لحاق بنا."

- "هذا الكلب، سبعة أشهر دوّخنا عليه."

توقّف معلّمي في مكانه، وبينما هو لا يزال في حيرته، رأيت

رجلًا من بين ثلاثة، كان والدي قد طرحني عند نعالهم، يسير نحوه ويكلّمه بلهجة لم أفقه منها شيئا. ضرب المعلّم كفّا بكفّ، تريّث قليلًا ينقل بصره بيني، أنا المرميّ أرضًا، وبين أبي المنتصب خلف رأسي، ثمّ أدار ظهره لنا ومضى يستجيب لزبائن دكانه.

جلست خلف والدي على ظهر بغل، بعد أن ربط إحدى يديّ بطرف حبل غليظ، وجعل طرفه الآخر إلى عنق البهيمة، ثمّ سرنا خلف دابتيّ الرجال الثلاثة. على طول الطريق، كان صيام الألسن باديًا، فقط، أصوات وقع حوافر الدواب وزفيرها، ورياح تهبّ في تقطّع، ما كان يفسد صمت القافلة. وكنت أنا على ظهر البغل أترنّح في استسلام لقدري، أقتاد إلى دياري كأسير حرب، ذليلًا، منتكس الرأس، شاحب الوجه، يابس الشفتين، زائغ العينين، عبد آبق، نال منه سيّده أخيرًا. وظلّ فكري جامدًا، يلجمه تقدّم القافلة عن الانصراف خارجها. في حلقي غصّة أسف وهوان. فلا أرفع رأسي، ولا أبلع ريقي، ولا أحرّك حتّى يدي المشدودة إلى عنق الحيوان، بل أتركها ساقطة، تترنّح والحبل المرتخي، في الخواء.

عندما كدنا نبلغ منحدر الوادي المالح انعطفت قافلتنا يمينا في اتجاه دوار قد شيّدت بيوته من طين، ثمّ رست القافلة أخيرًا عند بقعة ظلّ أشجار كاليبتوس. عُقلت الدواب إلى جذوع الأشجار. واقتادني أبي خلفه، يشدّني بالحبل، كما يجرّ النصارى كلابهم.

جلسنا بفناء أحد البيوت زهاء الساعة. بعد ذلك جاؤونا بالغداء، مرق خضار بالدجاج، ثمّ شربنا الشاي، ومع حلول العصر ودّع والدي أصحابه الأمازيغ، وشكرهم على الطعام وعلى الخدمة الجليلة التي أسدوها له.

وصلنا بوعيّاد مع المغيب. كانت صدمة ما حلّ بي تصرفني عن التفكير في أي شيء، ومضت تلك الليلة بسلامٍ وبدا أنّ أبي كان مزهوًّا بنجاحه في العثور عليّ وإرجاعي إلى الخيمة. حتّى الآخرون، لم يقدم أيّ منهم على النيل منّي، وقد كانوا جميعًا مبتهجين وهم يتسلّون بالاستماع إلى والدي يسرد تفاصيل واقعة القبض عليّ، وكنت أنا في ركن الخيمة متكوّرًا، جاعلا وجهي يغوص في التقاء ركبتيّ، تصلني أصوات حديثهم وقهقهاتهم كدويّ مدافع عدوّ على الأبواب.

ظلّ وجهي غائصًا في ركبتيّ، حتى شعرت بيد ثقيلة دافئة على ظهري. حين رفعت بصري، كان أخي الشركي واقفًا أمامي، يمدّ لي بيده الأخرى قدرًا من الحليب الساخن، تناولته بكلتا يديّ، ثمّ كرعته بظمأ من هو راجع من نهار قائظ قضاه بصحراء. وضعتُ القدر الفارغ على الأرض، ورفعتُ جفوني المتثاقلة أتابعه يمضي إلى ركنه بالخيمة. ثمّ عاد يحمل سلهامًا. رماه على ظهري. فانعكس ضوء فتيل الزيت الخافت ينير وجهه:

- "خذه! تدثّر به!"

حرّرت ساقيّ من انثنائهما. ثمّ، وبعد تردّد، سحبت السلهام من على ظهري أبسطه على جسدي وأنا أتراجع مستلقيًا على الأرض. نظرت إلى سقف الخيمة الغارق في السواد، تمايلت جفوني، جذبت طرفي السلهام أكثر إلى فوق، تذكّرت سلهام الفقير، فاعتراني إحساس بالأسف لبقائه ببيتي، مثلّث الشكل، ببلاد زمّور.

## (الذئب مرّة أخرى)

مضت الأيام في بوعيّاد ببطئها المعهود، وترقّبت مع كلّ بزوغ شمس جديد أن يُنزل والدي بي عقابه، عن الفرار الذي اقترفت. لكن ذلك لم يحصل، فاطمأنّت نفسي المتوجّسة، واستطعت النوم أخيرًا دون أن يخترق مناماتي وجهه المظلم ويداه القاسيتان تقتلعان براعم أحلامي الهنيئة. فقلت: ربما قد تعلّم الدرس ممّا أقدمت عليه، فصار يخشى إن هو عاد إلى النيل منّي، أن أعود بدوري إلى الركض بعيدًا من جديد. ومن يدريه؟ فلعلّه لن يطال مخبئي إن فعلتها مرّة أخرى.

بعد أيّام قليلة فقط، عدت للاندماج في رتابة الحياة ببوعياد. عدت أسوق القطيع صوب المراعي، أغادر قبيل الشروق وأقفل عائدًا قبيل الغروب، أتكئ على عصاي، وأحمل زوّادة شحيحة الطعام، طامعًا أن تجود عليّ أمّي زهرة أو غيرها من نساء الدوار، ببعض ما يسدّ رمقي، إن حصل وأن تقاطعت بنا السبل، أو جاءت إحداهن في أثري. وأظلّ متأهّبا كلّ التأهّب للتصدي للذئب إن ظهر من جديد.

الذئب مفتاح قدري. سأعرف ذلك فيما بعد. حين يتقدّم بي العمر، وأكون جالسا على كرسيّ خشبيّ أمام بيتي بالرماني، في المساءات المعتدلة، أقابل أشجار الصنوبر الكثيفة تغطّي وجه جبل الكارة، أقلّب على مهل صفحات ذكرياتي البعيدة. أمّا وأنا بعد طريّ العود، مستضعف بين أهلي، ضائع بين رؤوس القطيع العظيم، فأنا لم أكن أراه إلّا شرًّا، ومفتاحا لباب من الجحيم على وجهي.

انبعث الذئب من جديد، من حيث لم أدر، وقطيعي يرتع في اطمئنان على امتداد سهل عريض معشوشب. انقضّ دون تردّد ولا رحمة يطرد السكينة عن قلبي، يطيح على مرمى من بصري برؤوس ماشيتي. كم رأسا أسقط؟ واحدة؟ ثلاث؟ يضغط بفكّيه على عنق الضحية الأولى، يخنقها خنقا شديدًا، حتّى إذا هوت، مضى إلى أخرى، مستغلًّا ارتباك فرائصي وحيرتي في أمري.

وكما يحدث في كل مرّة، جمعت شتات قطيعي أسوقه صوب الدوار، ناقصا هذه المرة نعجة وخروفا وجديين.

كبّلني، كما المرّة الأولى، امحمّد من يديّ، بأمر من والدي. لكنّه لم يربطني إلى وتد كما المرّة السابقة، بل شدّني بالحبل إلى الأصهب. خرج كلّ أهل خيمتنا، بل كلّ خيام الدوار، ليشهدوا إنزال الحكم عليّ، على ما اقترفت في حقّ حماية القطيع والذود عنه. التفت امحمّد من فوق ظهر الحصان تجاهي، كانت الشمس ساطعة فوق رأسه، نظر في عينيّ، نظرة ثائر حانت ساعة أخذه بثأره، بينما كانت قدماي تهتزان في مكانهما، تتهيّآن في فزع لما هو آت. وقبل أن يرجع برأسه، فيحجب الشمس خلفه، ويوجّه بصره إلى الأمام، ساط الأصهب فانطلق به، بنا، في عدو مجنون.

ركضت قدماي بضعة أمتار، ثم استسلمت للانجراف الشديد. اصطدم جسدي بالأرض، مرة، مرتين... ثمّ راح يتجرجر كخرقة. يتمرّغ وجهي في التراب، تُسحق أضلعي مع الأرض، وتصطدم عظامي بما برز من رؤوس حجر وجذوع شجيرات، وأنا تحت رحمة الحبل الذي يشقّ معصميّ، تحت رحمة الأرض التي يتقافز عليها

جسدي الطريّ، وتحت رحمة هيجان الحصان، شبه عار، قطعة من ثوب واحد قصير مهترئ هي ما يستر بدني. تتطاير قطرات الدمع بعيدًا عن عينيّ وعن وجهي، أصرخ، وأستنجد، وأترجّاه أن يرحم عظامي وجلدي ووجهي. فلا يجد صدى استغاثاتي أذنًا تسمع، ولا قلبًا يرحم. كانوا يتابعون تعذيبي، بعيونهم البلهاء الفارغة. فلا انعكس الأسف على وجوههم اليابسة، ولا تدخّل أرشدهم، ولا أشجعهم، حتّى الشركي، ليستنكر العذاب الظالم الذي يطالني كلّما أتى الذئب على شيء قليل من قطيع أبي العظيم.

لم أكن فاقدًا للوعي، لم أكن أحلم، لم أكن أتوهّم، حين وجدتني جالسًا على التراب، غير بعيد عن خيمتنا، وقد انفض الجمع من حولي، أجمع دموعي وأسمالي، وأمسح الدم عن أطرافي، وأتحسّس الكدمات. كنت في كامل وعيي، كامل يقظتي، عندما رأيت أمّي تخرج من الخيمة وتتقدّم نحوي. تفوح من ملابسها الزاهية رائحة قرنفل وحناء، تسبق هامتها الهادئة موجات دفء وسكينة. جلست إلى جواري، تمسح بمنديل مبلّل جراحي، دموعي. تنفض التراب عن شعري. تغسل وجهي، ثمّ تضمّ رأسي إلى حضنها، تهدّئ من روعي وتطرد الأسى بعيدًا عن صدري. تضع صحنا من رفيسة الحرشة بالحليب والزبدة والبصل على حجر مستو أمامي، قبل أن تقفل راجعة إلى الخيمة. هل قالت لي شيئا؟ همست بشيء وهي تمسح الدمع عن وجهي؟ ماذا قالت؟ "اصبر يا بنيّ، إن الله لن يرضى أن يستمرّ هذا الظلم بك؟" أم قالت: " كل يا مسكين! رزق أبيك وافر، وأنت لا نصيب لك منه"؟ هل كانت تلك المرأة التي واستني ووضعت

رأسي بين ذراعيها وصدرها، وأطعمتني أمّي حقيقة؟ أم تراها كانت... خالتي زهرة زوجة عمّي الحسن؟

* * * * * *

إنّي أركض من جديد. أركض بعيدًا عن الجحيم، أركض وكلّي حذر أن تطالني يد من وراء ظهري، فتردّني إلى حيث الجوع والفزع والسوط، إلى حيث الجحيم، أركض تاركا لقدميّ حريّة الاختيار. هما تعلمان أين تسيران بي، هما تتبعان سبل أقدام أناس آخرين. خطوات لا معدودة، منذ أزمنة غابرة، حفرت مسارب ومسالك.

وكأنّ كل طرق فراري تؤدّي بي إلى نفس المكان. لكنّ تيفلت لم تعد بعد اليوم مكانا آمنًا لي، فما كادت قدماي تطآن أرضها، حتّى وجدتني أمضي مبتعدًا وقد أخذت قدماي خيار السير عبر الطريق المعبدة. تركت تيفلت خلف ظهري ومضيت، لم أعد أركض الآن، بل أمشي، لا أهرول، بل أسير على مهل وفي سكينة. هدأ روعي ما إن سرت عبر الطريق الإسفلتية، أبتعد شيئا فشيئًا عن مخبئي القديم.

واجهت جوع رحلتي هذه المرة، بتسلّق أشجار البلّوط بالغابة التي اخترقتها الطريق، وملء بطني بثمارها قبل النزول. مرّة دخلت ضيعة، وتناولت "حدجًا"، حسبته بطّيخا أحمر. ولقوّة جوعي لم أنتبه لمرارة مذاقه إلّا بعد أن أتيت على نصف الثمرة. أنام بين الأشجار، أفترش عشب الغابة، وأتدثّر بأوراق الأغصان والبقول. حتّى إذا استجمعت بعض قوّتي، عدت للسير عبر الطريق، مهما يكن الوقت،

ليلًا أو نهارًا، باردًا أو حارًّا، بقدميّ الحافيتين، وتلك الخرقة التي تغطّي بعض بدني.

طالت هذه الرحلة بي ليومين أو أكثر قليلا. والطريق الإسفلتية، التي اختارت قدماي سلكها، انتهت بي أخيرًا إلى قرية أخرى. ليست كتيفلت، إنّها قرية كبيرة، إنّها مدينة، يؤطّرها سور شامخ. كانت تلك سلا، إحدى العدوتين، غير أنّي، لم أمكث بها طويلا، تشرّدت أيّاما قليلة في أحيائها، ثمّ سرت نحو النهر العظيم، نهر أبي رقراق. سمح لي صاحب قارب يشتغل على نقل الناس والبضائع بأن ينقلني في طريقه صوب العدوة الأخرى، الرباط، عاصمة البلاد.

ما عادت أشجار البلوط، ولا حقول الذرة والقصب، ولا الربى، ولا الخيام والأكواخ المتناثرة، ولا الجديان والخرفان، ولا امتداد البريّة حتّى الأفق...، هي ما يحيط بي من كلّ صوب. بل البنيان المتلاصق والشاهق، والأزقّة المتاهات، والناس الكثر، مختلفو السحنات والأزياء والسمات، ودكاكين الأسواق المشرّعة كل يوم، والعربات المدخّنة وغير المدخّنة، والدراجات والطرقات، والأرصفة والمقاهي المتقاربة، والأسوار الحمراء والأبواب المقوّسة السامقة التي تخترقها... هذه الفضاءات، فضاءات المدينة هي ما أضحت مرتعي الجديد.

# الفصل الثاني
# زمـن الحـرب

**مارس 2002،**

**بلدة الرماني، زعير،**

جاء ساعي البريد في وقت أبكر اليوم. جاء والشمس لم تتجاوز بعد قمة تلّ حيّ الأمل المقابل، عند الضفة الشرقية لوادي "هنتاتة" الذي يقسم البلدة إلى ضفّتين. جاء يوقظ بضجيج درّاجته النارية كل نائم عبَر قرب داره في طريقه إلى دارنا، ويدفع دجاجاتنا للقفز مذعورة بفضاء الحوش الصغير، فاردة أجنحتها في محاولة تحليق تنتهي دومًا بالإخفاق.

استبشرت خيرًا بمقدمه في تلك الساعة. ألا يقولون إنّ البريد المهمّ لا يقبل التأجيل؟

انتفض محمّد من جلسته في اتجاه الباب الداخلي، ما إن بلغ مسامعه صوت الدراجة الصاخب، كأنّ يدًا خفيّة وكزته على حين غرّة. وكانت زوجتي بالمطبخ منهمكة في تجهيز الفطور، بينما جلست أنا بالصالون، أحشر يديّ بجيبيّ جلبابي الصوفيّ الأخضر، أنتظر التفرغ من الوجبة الصباحية، حتّى يتسنّى لي الخروج ببطن ممتلئة وأخذ حمّام شمس أدفع به برد مارس عن عظامي.

مددت عنقي نحو البهو المفضي إلى الباب، حين اقتحم صمت الدار صخب محرّك الدراجة ممزوجا بهمهمة الحديث القصير المعتاد بين محمّد وساعي البريد. وضعت زوجتي صينية الشاي على المائدة بينما كان محمد يقفل الباب ويعود إلى الصالون حاملًا بين يديه المظروف الأبيض الطويل الأنيق، المزين بختوم زرقاء فرنسية.

شرع قلبي في الخفقان السريع. بأصابع متوتّرة فتح محمد المظروف، ثم سحب من داخله الرسالة بحذر كأنّما هي قطعة كريستال. على السداري المقابل لي جلس، وما كاد يبسط الورقة البيضاء أمام وجهه حتى انبرت عيناه تلاحق الكلمات والسطور. أنظر أنا إلى وجهه، أتأمّل ملامحه، ألاحق نظراته، وأترقّب في كلّ لحظة أن تنبسط أساريره المنقبضة عن ابتسامة أنتظر سطوعها منذ زمن طويل.

حين توقّف عن القراءة، توقّفت أنا أيضا عن التحديق إليه، ساحبًا نظراتي اليائسة صوب الأرض. وصلني صوته حاملا ما توقّعت:

- "كالعادة، إنّهم يتأسّفون وحسب!"

أتنهّد بعمق، فيصلني هذه المرة صوت زوجتي الجالسة عند حافة "السداري" تخلط السكّر داخل الشاي:

- "مالك يا رجل؟ فكّ حاجبيك، وأرخ أعصابك. حالنا ميسور والحمد لله."

لا أقول شيئا، تمدّ لي كأسا من الشاي، أتناوله في استكانة، أتحسسّ براحتيّ يديّ المثلجتين سخونته، وأظلّ ساهما في رغوته.

كم مرّة كان عليّ الجلوس والانتظار هكذا؟ وكم مرّة قلت فيها لابني محمّد أن يتوقّف عن مطاردة هذا السراب، الذي يرهقنا بجدال عقيم حوله كلّ حين؟ في كلّ مرة يجيبني بنفس الكلام: "لا تضيع الحقوق عند هؤلاء!"، "ما ضاع حقّ وراءه طالب!". هكذا هي حماسة أبناء هذه الأيام، هكذا يتخبّطون، إنّهم لا يفهمون. يردّدون هذه الكلمات دون أن يعوا أن الحياة لا تدرك بالانتظار. كم مضى من الوقت وأنا قاعد هنا بقعر الدار أنتظر استجابة وزارة الدفاع

الفرنسية لمراسلات محمّد؟ لماذا يطالبنا الأبناء بالجلوس ولزوم الصمت والانتظار، كأنّما هم من سيتكفّل بإصلاح العالم الذي ينهار. حسنًا، لا أذكر أنّي بالماضي كنت أعقد يديّ وأستلقي في راحة بال منتظرًا حدوث شيء يغيّر حياتي، أو مصيري. لا تحدث الأشياء دون مسبّبات، دون السعي خلفها، والعضّ بالأسنان لانتزاعها. حياتي كانت رحلة طويلة، ليس مجازًا، بل فعلا كانت كذلك، انتقالا دائمًا، عبر محطات كثيرة. وحين كنت أنوي الانتقال من مكان إلى آخر، كنت أجمع أشيائي، أرميها على ظهري ثم أشدّ الرحال.

منذ أكثر من سنة، وقع محمّد داخل دوّامة المراسلات. لا أعلم من اقترح عليه فعل ذلك. أو كيف نزلت هذه الفكرة على رأسه. أقول له:

- " أنت تدور في حلقة مغلقة. أتدري ما يشبه ذلك؟ كأن تجلس ضامّا ذراعيك قبالة ساعة الحائط لزمن طويل، تراقب عقرب ثوانيها وهو يواصل رحلة دورانه السريع."

في رسالة سابقة أخبروه أنّي أستطيع الحصول على راتب جنديّ فرنسي إن حققّت شرطًا واحدًا: أن أرجع إلى فرنسا. وهم سيتدبّرون لي أمور الإقامة هناك. قلت له:

- "أنت تعلم، لم يعد من مجال للعودة إلى فرنسا..."

- "حسنا، إذن! نراسلهم من جديد، ونخبرهم بقرارك هذا!"

- " لا تتعب نفسك يا بنيّ! أنا أعرف أولئك جيدا. الأمور لديهم واضحة. ثابتة كالوتد في الأرض. عندما يقولون لك شيئا فهم يعنونه تماما. ليس كما عندنا..."

- "نراسلهم ونرى!"

- "حسنا يا محمد، ما دمت ترى أنّ المراسلات قد تأتي بنتيجة، لماذا لا تحاول أن تراسل إحدى إداراتنا تلك بالرباط حول تقاعدي الهزيل؟ ثمّ اقعد لسنين تراقب عقارب الساعة. صدّقني، ستنبت لك جذور في الأرض دون أن يحصل شيء..."

الجلوس والانتظار؟ هذا أمر لا أتحمّله. لأني منذ البداية أدركت، بفطرة محضة أنّ الجمود والانتظار لا يوصلان لشيء. حتى الرضيع، الذي لا يفقه من أمور الحياة شيئا يخرج لسانه، ويحرّك رأسه الصغير باحثًا عن ثدي أمّه، حتّى إذا أدركه راح يحرّك شفتيه الرقيقتين ليسحب منه الحليب، إنّه لا يجلس ينتظر، ذلك درس في الحياة، وقد وعيت الكثير من دروسها في وقت مبكّر. لعلّ الوضع البئيس الذي وجدتني فيه مذ أن تفتّح وعيي على الوجود هو ما جعلني مدركا لِكُنْه الأشياء. رغم اقتناعي بأنّ الخطوات التي أقدمت عليها، لم تكن تتطلّب الكثير من الوعي والتفكير، قليلا منهما ربما، لأنّ ما كانت تتطلّبه حقيقة هو الإقدام...

**شتاء 1949،**

**الرباط،**

- "لماذا لا نلتحق بالعسكر؟"

رفعت رأسي عن طبق اللوبيا ونظرت إلى وجه مصطفى الأبيض الضامر، المليء بالبثور. كان يواصل تحريك يديه بخفّة خلف المنضدة، يجفّف صحون القصدير البيضاء ويقلبها فوق بعض على سطح الطاولة الخشبيّ لتجفّ.

طيلة سنتين عملت عند الرغاي، التاجر الرباطي الكبير.

أحمل قفّة من دوم، بها أغراض نسوية: مشوط وعطور زهر، ومناديل رأس، ومناديل أنف، وأعواد سواك، "طاسات" حمّام، "وأكياس" حمّام... أنطلق صباحا، عبر دروب المدينة القديمة وحاراتها، كما عطّار الدوار، أنده بأسماء مبيعاتي كلّما ولجت زقاقًا جديدًا، أو عبرت قرب فرن أو حمّام بلدي، فتطلّ عليّ النساء، حاجبات وجوههنّ بأطراف أثوابهنّ، عبر النوافذ بالأعمدة الحديدية ذات الالتواءات العجيبة، يطلبن ما يرغبن في تبضّعه، يؤكّدن الطلب، ويتأكّدن من وجوده عندي، ثمّ يقفلن ألواح النوافذ. أضع طلباتهنّ على عتبة الباب، ثمّ أتوارى عند انعطاف الزقاق، حتّى إذا وصلني صوت إقفال الباب، رجعت لتناول المال من فوق العتبة.

في المساء يعدّ المعلم الرغاي الفرنكات التي جنيت، ثمّ يناولني شيئا منها. لا أتدخلّ أنا في عمليّة الحساب، ولا أعتقد أنّه كان يدفع لي وفق نسبة معيّنة، بل يناولني ما يشاء حسب هواه. أضع

المال في جيب الجلباب، ثمّ أمضي إلى مقاهي السويقة ومطاعمها لتناول العشاء، بصارة أو عدس أو بيض مسلوق، وأشرب شايًا أو – في أحسن الأحوال – قهوة، حيث نجتمع هناك نحن صبية التجارة والصناعة التقليديّة، وعمّال المرسى وقوارب الصيد والبناء وغيرهم من متعلّمي الحرف، نتجاذب أطراف الحديث، نحكي عن تفاصيل يومنا، طرائفه وأهمّ أحداثه، نتراشق النكات ونلعب بالورق.

في رحاب العمل عند الرغاي، كنت أنام قرير العين، وأفيق مقبلًا على الحياة. كنت أربح من تجارته هذه ما يكفيني من مال لسدّ رمق الجوع الذي عانيت منه في حياتي الماضية، إضافة إلى أنّ المعلم الرغاي يوفّر لنا سكنا لائقا، بطابق كامل من دار يتشارك في ملكيتها مع أخيه. كان الوضع عند الرغاي مناسبًا لي. ولم أحلم، وأنا أطلق ساقيّ للريح في رحلة فراري الثاني، بأن أحظى بفرصة عمل سهل هكذا، وسكن مريح كالذي بدار الرغاي بالمدينة القديمة. لكن، والوقت يمرّ بي هنا، وعيناي تنفتحان على حياة المدينة، وتعرّفي على فتية يجنون في أعمالهم أضعاف ما أجني أنا، ما يمنحهم الحقّ في شراء ما يشتهون، من لحم مشوي وكفتة ودجاج وسمك وقمصان ملوّنة وسراويل طويلة وأحذية جلديّة، صارت الرغبة في إيجاد عمل يُدرّ المال الوفير، تقضّ مضجعي بشدّة.

كانت البلاد خاضعة للحماية الفرنسية، لم أكن أعير ذلك أيّ اهتمام؛ فقد فتحت عينيّ والوضع كذلك. وكان المستعمر هو الذي ينظّم شؤون الحياة، وكنا نحن جميعًا، نعيش، نتحرّك، نأكل ونعمل، وفق أسلوب الحياة الجديد الذي وضعته فرنسا لنا، أنا لا

أعرف عمّا كانت عليه الأمور قبل مجيء فرنسا، لكنّي سأسمع فيما بعد عن زمن السيبة والفوضى والتقاتل الذي شهدته القبائل فيما بينها. وسأعلم أيضا كيف كانت فرنسا تواجه تلك القبائل المتمرّدة عليها وعلى سلطة المخزن، وتخضعها بمنطق قوة السلاح لسلطتها. داخل أسوار المدينة، كان كلّ شيء يبدو لي هادئًا، لكنّ الناس كانوا يحكون عن معارك تستعر بالبوادي وعلى تخوم الحواضر. لكنّي، في هذه المرحلة، لم أكن أعلم عمّا يجري الشيء الكثير، بل لم أكن أهتمّ بشيء آخر غير تحصيل لقمة العيش، والبقاء في مأمن من أن يطّلع أبي مرّة أخرى على مكاني. لقد كان فكري محشورًا في هذه الزاوية الضيقة، وقد مثّلت بالنسبة لي وقتها الحياة كلّها.

هذا المفهوم الضيق للحياة، محكوم عليه هو الآخر بالتغيّر.

كان كلام مصطفى عن مزايا الخدمة في العسكر مقنعًا، وملائمًا لوضعي.

"يقولون إنهم في العسكر يوفّرون لك المسكن والمأكل والملبس، وراتبا سمينًا...".

وكانت نظرته المتفائلة ونصف الابتسامة المتحدّية على وجهه أشدّ إقناعًا. لذلك، وبعد أيّام فقط عن حديثه هذا، غادرت ذات فجر، دار الرغاي، وتجارة الرغاي، ومدينة الرغاي، ومشيت رفقته عبر الطريق المعبّدة في اتجاه القنيطرة.

هناك بالقنيطرة، كانت ثكنة عسكرية تابعة للجيش الفرنسي. وبالثكنة كان مكتب للتجنيد. وكان علينا الوصول إلى هناك، وإبداء رغبتنا في التطوّع للخدمة العسكرية، ثم انتظار يوم محدّد للانتقاء.

فرنسا خرجت من حربها ضدّ الألمان منتصرة، كما يقولون، لكن منهكة، وهي ما زالت تخوض حروبا أخرى كثيرة عبر العالم، في إفريقيا وآسيا، ومن يدري أين أيضا. وهي تحتاج إلى جنود، المزيد من الجنود، لذلك، فهي تبقي مكاتبها مفتوحة لمن أراد الانضمام لصفوفها من أبناء المستعمرات. ورغم حاجتها الماسة إلى متطوّعين، إلّا أنّها تفرض شروطًا، ولا تأخذ كلّ من هبّ ودبّ. لذلك أوقفونا في ساحة الثكنة عراة، كما ولدتنا أمّهاتنا وراحوا يتفحّصوننا. كانت ساحة إسمنتية كبيرة، تفصل بنايات القيادة عن بنايات إقامة العساكر. كان هناك ضبّاط وضبّاط صفّ يشرفون على العملية، ومجموعة من الجنود يقومون بالتنفيذ والتنظيم، وطبيب عسكري، وكان من بين الضباط ضابط يضع عصابة سوداء على إحدى عينيه، يقف منعزلا عن الآخرين، ويراقب في صمت. بينما كنّا نحن حوالي الخمسين أو الستين متطوّعًا، نقف في صفوف توزّعت على ثلاث مجموعات.

فحصوا آذاننا، وعيوننا، وأفواهنا، أيدينا، وأرجلنا، وكلّ بقعة، تخطر أو لا تخطر على البال، من أبداننا. جسّوا نبض قلوبنا وإيقاع صدورنا. قاسوا نظرنا، ووزننا، وطولنا. وهنا، عند نقطة الطول هذه، أشار إليّ الجنديّ الذي يجري القياسات بالتقدم نحو ضابط الصفّ المشرف على مجموعتي. "بوعزّة بن الحسن؟" سألني بلكنة فرنسية. أجبت: "نعم". ثمّ دوّن شيئا على دفتر بيده. ثمّ طلب منّي ارتداء ملابسي والمغادرة.

نكست رأسي أكثر ممّا كان نازلا في الأول، وهممت بالمغادرة. لكنّ صوتا آخر، صدر من مكان بعيد آمرا مجلجلًا: "انتظر!"، رفعت رأسي، فإذا بضابط الصف يمدّ عنقه بشكل مائل نحو السماء، يؤدّي على وجه السرعة التحية العسكرية، ثمّ لمحت الضابط الذي يضع عصابة على إحدى عينيه يتقدّم بخطى واثقة حتّى وقف جنبه، "سنقبله!" قال بصوت هادئ. "طوله متر و٦٧ فقط سيّدي!" ردّ ضابط الصفّ دون أن يحرّك يده أو رأسه. "إن كنّا سنختار متطوّعًا واحدًا من بين هؤلاء، فسيكون هذا الفتى!"، قال ذلك وكأنّه يضغط على أسنانه. "أمرك سيّدي".

**أواخر خريف 1950،**

**الدار البيضاء،**

## (القطار)

صعدت القطار ضمن مجموعة الجنود الذين كانوا رفقتي بمعسكر التدريب، بإحدى المقصورات اتخذت مقعدي قرب النافذة. جلس بوعطية قبالتي، هو الآخر يمدّ نظره عبر النافذة. كانت الرياح تهزّ الغبار الكثيف على رصيف المحطة، ثمّ تنثره على الوجوه. كانت عربات بأحصنة وشاحنات تزحف على الرصيف الآخر، التابع للميناء. وكان عمّال يتناوبون على حمل صناديق ثقيلة لوضعها أسفل حبال تتدلّى من رافعات سفن تصطفّ بالمرسى. المشهد الخريفي العاصف، جعلني أشعر وكأنّ نسائم باردة قد تسلّلت عبر فتحات الملابس إلى جسدي. فتراءت أمامي مشاهد من فرار قديم...

بوعطية كان يفرك يديه مع ركبتيه. هل شعر مثلي بالبرد؟ أم تراه كان متوتّرًا؟ بينما تكدّس باقي الجنود إلى جوارنا عبر الكرسيين الأحمرين الجلديين، اللذين يمتدان على طول المقصورة. ينعكس على وجوههم قلق، وعلى أعينهم أسئلة كثيرة. تحرّك القطار متمهّلا. خفق قلبي بشدّة. وبينما زاد من سرعته وهو يترك الدار البيضاء خلفه، راح العرق يسيل على جبيني. صار الجو يستعر داخل المقصورات المكتظّة. وبدأت أجد صعوبة للظفر بنسمة هواء تحرّر أنفاسي المتراكمة.

كنت أعي جيّدًا ما يقع، سنغادر المغرب، صوب بلاد بعيدة، حيث سنشارك في حرب يخوضها الجيش الفرنسي. والبداية من هنا. من رحلة القطار هذه. إنّه يطوي المسافات سريعًا. رغم طوله، حديده الكثير، ووزنه الثقيل. المشاهد من النافذة تمضي سريعًا، يصعب على نظراتي البطيئة أن تلحق بها، أن توقفها وتمعن النظر فيها، حقول وضيعات، قرى ودواوير وخيام، أنهار وأشجار وقطعان... وكأنّ القطار يخترق الحوامد، يمرّ قريبًا من بو عياد، دوّارنا. إنّي أرى الخيام، أشمّ رائحة الشواء، ذاك الرجل هناك يجرّ حمارًا محمّلًا بركوات ماء، إنّه أخي الشركي، وتلك المرأة هناك تحمل على ظهرها حشائش، تلك هي زهرة زوجة عمّي الحسن... إنّي أرى القطيع، قطيعنا، وأسمع صياح الجديان، يبلغني رغم الزجاج، رغم صخب محرّك القطار، ورغم جلبة الجنود من حولي. هل ما انتابني حينها كان حنينا... إلى بوعيّاد، إلى القطيع، إلى أهلي، إلى المراعي، إلى ذلك الزمن الذي بدا من نافذة القطار، أبعد من أيّ وقت مضى؟ أمّ أنّه شعور يثيره إدراك أنّي مغادر أرض الوطن، صوب بلاد بعيدة، عبر رحلة يقال إنّها تستمّر لأيّام عبر البر والبحر؟

أخرجني من بئر شرودي، بوعطية وهو يسألني إن كنت أعرف مكان إبراهيم، وعندما لم يلق تجاوبا منّي، قام من مكانه يتخطّى الركب المتقاربة، ومتّكئًا بيده على جدار المقصورة حتّى يحافظ على توازنه أمام اهتزاز عربات القطار المتواصل.

بعد زمن، ولمّا شعرنا أن الرحلة قد بدأت تتمدّد بنا، راح معظم الجنود ينتقلون من وضع الجلوس داخل المقصورات إلى

الوقوف بالممرات الضيقة، حيث النوافذ الصغيرة العالية نصف مفتوحة على الخارج، وكانت سحب دخان السجائر الرخيصة هناك تزيد من صعوبة الحصول على أنفاس نقيّة. كان صوت دوران عجلات القطار على حديد السكة صاخبًا، وكان اهتزازه يصير أحيانا مقلقًا. مع ذلك، كان الجميع مستمتعين بأحاديث يتخلّلها ضحك كثير. ظلّ بوعطية يذرح الممرات في بحث حثيث عن رفيقنا الآخر إبراهيم، لعلّه يلفي عنده سيجارة تنفّس عنه ما اعتراه من ضيق مفاجئ لمّا عبر القطار بنفق الرباط المظلم الطويل، وظلّ ملتصقا بصدره حتّى بعد أن تجاوزناه بعشرات الكيلومترات.

نهضت بدوري، أتبع خطواته لأزيل الخدر الذي نال من قدميّ. نظرت إلى الوجوه التي تختلف قسماتها وتلويناتها، وتتوحّد في التعبير عن سرور طفوليّ غريب، تملأ الممرات. رأيت وجهًا مبتسما تتخلّله البثور. "مصطفى؟" هكذا قفز الاسم في رأسي. كدت أن ألفظه خارجًا، لولا أنّي تمعّنت جيّدًا في الوجه الممتلئ الذي تعلوه القبّعة العسكرية.

توقّفت عن السير خلف بوعطية عائدًا أدراجي نحو المقصورة وقد اعتراني شعور بالضجر. وددت لو كان مصطفى هو الآخر على متن هذا القطار، نتجاذب أطراف حديث طريف عن ذكريات المدينة القديمة للرباط. أيام صرت أراها بعيدة جدًّا وقد عدت إلى مكان جلوسي، أنظر عبر النافذة، إلى أراض جرداء قاحلة، يخترقها القطار السريع، تحت سماء تأبى سحب رمادية ثقيلة متناثرة أن تغادرها. لماذا رفضوه يا ترى بمكتب التجنيد بالقنيطرة؟ هل لعظام وجهه

البارزة؟ أم بسبب البثور التي تتخلّل ملامحه؟ هل لأنّه نحيل أكثر من اللازم؟ هل بدا لهم أنّ جسده لن يتحمّل سنة كاملة من التدريب الشاق الذي خضناه هناك بين ثكنة جانكير بالدار البيضاء، وغابات كامبولو (بنسليمان)، ومديونة؟ الركض طوال اليوم، والمشي لعشرات الكيلومترات، ثم تمارين التحمل والرمي بالسلاح؟ أم كان خيرا له البقاء هناك بالمقهى، في مأمن من كلّ ما هو آتٍ، بين الطناجر وبراريد الشاي؟ لقد رأيته يومها يغادر خارج الصفوف منتكسًا، يجترّ قدميه بتثاقل على تراب ساحة الانتقاء، كأنما يتلكّأ عمدا لعلّ صوتا واثقًا يغيّر فجأة مصيره، مثلما غيّر صوت الضابط ذي العصابة السوداء مصيري.

اقتحم صوت بوعطية تفكيري من جديد، وضع يده على كتفي ثم ارتمى جالسًا في مكانه قبالتي. قال إنّه لم يجد لإبراهيم أثرًا، ولا النحيلة أيضًا، لكنّ الأهمّ أنّه وجد من مدّه بسيجارتين قد يبعث دخانهما بعض الطمأنينة في صدره.

بعد ساعات طوال، منهكة ومربكة، رغم فترات الاستراحة العديدة التي تخللتها، كان آخرها وقفة مطوّلة بالحدود، وصلت رحلة القطار أخيرًا إلى منتهاها... مدينة وهران. وكان الوقت صباح يوم جديد.

نزلنا من العربات كتيوس لاهثة، والعرق يبلّل رؤوسنا ويبرّد ظهورنا، وقد تصلّبت مفاصلنا وتشنّجت سيقاننا. وما كدنا نطأ الرصيف، حتى ألقينا حقائبنا، ورحنا نطرطق عظام ظهرونا وخواصرنا، ونفكّ التشنج عن أرجلنا وأعناقنا، دون أن يفوتنا تجديد

أنفاس رئاتنا بهواء متوسّطي منعش. حتّى الضباط، وقفوا بعيدا عنّا يحرّكون أجسادهم، ويهزون أقدامهم، وينفثون دخان سجائرهم.

أقمنا بثكنة عسكرية بوهران لحوالي عشرة أيام. تخلّل تلك الفترة، تدريبات صباحية ومسائية خفيفة، وكلام حماسي مطوّل يبثّه فينا الضباط كلّما تمّ تصفيفنا في الساحة. نسينا أنّ ذلك كان مجرّد وقت مستقطع، إلّا حين طُلب منّا ذات مساء، ونحن قعود على مائدة العشاء، إعداد حقائبنا لسفر جديد. مع أولى ساعات الصباح أولجنا الصناديق الكبيرة للشاحنات العسكرية الخضراء، والتي كانت وجهتها الميناء.

## (باستور)

وقفنا في الصفوف مندهشين، وقد تمدّدت رقابنا تستطلع أبعاد السفينة التي يخترق هيكلها الضباب الكثيف. بدت بطوابقها العديدة ذات الشرفات الكثيرة كبناية عظيمة نبتت من البحر. كنّا بوقفتنا تلك على رصيف الميناء، نشكّل مستطيلًا محكمًا من الصفوف المتوازية بدقة، ببذلنا العسكرية المكوية، تتخلّل فتحاتها العليا قمصان بيضاء نظيفة وربطات عنق مشدودة بعناية، وقد وضع كلّ واحد منّا حقيبته أمام قدميه، وكأنّنا نؤدّي التحية العسكرية لهذه السفينة العملاقة التي جابت ساحات الحروب الكبرى ومرافئ البحور العظمى. "باستور"، تلك التي لم نكن نعرف عنها في تلك اللحظة غير اسمها الذي يتردّد على لسان كلّ ضابط أو ضابط صفّ ممّن حولنا، وغير أنّنا بصدد الصعود إليها في رحلة سفر أخرى طويلة.

مُدّ الجسر الذي ربط باستور بالرصيف، ثمّ أُمرنا بحمل حقائبنا والسير في صفّ منتظم الخطوات. شعرت بالجسر الخشبيّ يهتزّ تحت قدميّ، انتابتني دوخة طفيفة، لكنّها سرعان ما تلاشت حين لكزني الجنديّ الذي يتبعني بحقيبته.

كان شعورا مهيبا لمّا بلغت سطح السفينة العالي، والتفت صوب وهران. كانت المدينة هامدة، في استكانة، وقد حجبت جزء منها كتل ضباب في بياض الحليب. ثمّ بدت لي الأرض وكأنها تفرّ بعيدا عنّي، رغم أنّ السفينة كانت لم تزل ساكنة في مكانها. وعند تلك اللحظة، بدأ خيالي يتخبّط في تخمينات ضبابية عمّا يمكن أن

تقودنا إليه هذه السفينة. بينما كانت جلبة الجنود من حولي وفي الطوابق الأخرى تزيد من غزارة هواجسي.

أطلقت السفينة صفارتها فارتج جسدي وأنا مستند بذراعي على حديد الحافة. تشتت تركيزي، وتعطّلت حواسي زمنا عن التقاط ما حولي، إلّا صدى الصفير في أذنيّ، يقطّعه وقع خفقان قلبي السريع، بينما بياض الصباح يغشى عينيّ الجاحظتين.

كانت رحلة السفينة من وهران إلى مارسيليا تجربة الاستنفار الحقيقي الأولى لنا. كان المجهول الذي نسير نحوه، وموج البحر الذي يبدو كتلال زرق متحرّكة، هو ما يجعلنا متحفزين. وسندرك بعد زمن ليس بالطويل، أنّ الحرب ترتبط دائما بالترحال الطويل والشاق صوب المجهول. ثم بدا وكأنّ الحرب قد أضحت أقرب إلينا، حين رأينا، والسفينة قد رست بميناء مارسيليا، تلك الحشود من جنود فرنسيين وألمان وسينغاليّين تندفع دون أدنى ذرّة قلق صوب الباخرة يأخذون أماكنهم إلى جوارنا. كانت وجوههم متصلّبة، حركات أجسادهم رشيقة، ونظراتهم حادّة يقظة. عندما لمحتمهم لأوّل مرة يندفعون عبر السلالم، بدوا كثعابين مستنفرة تزحف صوبنا، وفكّرت أنّ الأمور تضحي الآن أكثر جدّية وتنذر بمخاطر وشيكة. وصلني صوت قريب، صدر عن الشخص الواقف عن يساري: "إنّهم محاربون قدامى!". انتشلني من عمق تفكيري. نظرت صوبه، فتذكّرت أنّ هذا الجنديّ كان ضمن مجموعة تمّ إلحاقها بنا أيّاما قليلة قبل ركوب القطار. بدا أنّه يوجّه كلامه إليّ ونظراته أيضا. سألته: "كيف تعرف ذلك؟"، ردّ وقد صوّب بصره تجاه ما يظهر من أحياء مارسيليا: "لقد كنت

هنا، بأوروبا، طيلة سنوات. كنت ممّن خاضوا الحرب المستعرة ضد الألمان..." مال برأسه صوبهم ثم أكمل: "أستطيع تمييز المحارب القديم عن باقي الجنود. انظر الآن تجاه هؤلاء السينغاليّين، سرعان ما عقدوا حلقة وبدؤوا يصفقون ويرقصون، إنّهم يتصرفون على سجيّتهم، لأنّهم يعون تماما أنّه لا مفرّ مما تأخذهم إليه هذه السفينة، الفرنسيون جلسوا يدردشون وينكّتون. الألمان وقفوا مستندين على حافّة السفينة يدخّنون في صمت. هؤلاء محاربون خبروا الحرب، ويعيشون وفق طقوسها الآن، أوّل درس يجب أن تتعلّمه من الحرب هو ألّا تبالي بها! لأنّك إن لم تفعل لن تستطيع الصمود طويلًا. أمّا أنتم، الجنود الجدد، فتقفون متخشّبين على الدرابزين، تلتهمكم الدهشة، ويُطبق على عقولكم القلق..." كان هذا الجندي القديم، برتبة عرّيف، بمعطفه العسكري الطويل وملامحه شديدة الصرامة، يؤكدّها الحاجبان المنعقدان كمنجلين حادّين. نظر من جديد صوب سماء مارسيليا. واصل: " لقد كنت هناك، بمونتي كاسينو، بإيطاليا. كنت في الصفوف الأولى أواجه الموت في تلك المعارك الضارية. هل تعلم شيئًا؟ نحن الجنود المغاربة من كسر شوكة الألمان هناك..." وبينما كان يتمّ شحن الباخرة بالعتاد والذخيرة والمؤونة ومسلتزمات أخرى، كنت أنا أتابع نظرات العرّيف حمّو تحلّق صوب البعيد: "مطلع العام المنصرم، عدت إلى الديار وقد ازدانت بذلتي برتبة عرّيف، بعد سنة أو أكثر سمعت عن الحرب في فيتنام، ففكّرت في التطوع من جديد، لم أجد مانعًا للرجوع إلى حمل السلاح، فلا شيء يبشر في الديار بخير. الجوع والعراء والأرض الحمراء... هل تعلم بما كان

يلقّبنا الفرنسيون في الحرب على الألمان؟ كانوا يسمّوننا "القوميين Goumiers". وهذا هو سلاحنا. انظر." أزاح طرفًا من معطفه، فإذا بخنجر نحاسي معقوف يتدلّى من حزام سرواله.

* * * * *

دوّى صفير باستور، فانتفضت من غفوتي القصيرة التي أخذتها مستلقيًا على ظهري بالمكان المخصّص لي على سرير ذي طوابق بمقصورة الجنود، كان الحديث القصير مع الكابران حمّو قد رمى بي في جوف أجواء الحرب. الخنجر الطويل هو الذي بثّ بكياني الفزع الشديد، قذف في نفسي المزيد من القلق، وبعث في حواسي حذرًا إضافيًا، أنا أجهل الحرب، وكثير من هؤلاء الجنود الجدد لا يعرفون شيئا عنها، لذلك رحت أفكّر إن كان عليّ معرفة المزيد عنها من الكابران حمّو، أم أن حديثه لن يزيد هواجسي إلّا نضجًا وتمدّدًا؟

كانت السفينة تغادر مياه مارسيليا عندما صعدت صوب الشرفات أبحث عن بوعطيّة وإبراهيم، لعلّي أجد في طرائفهما ما يخفّف من شدّة قلقي، فإذا بي ألمح بإحداها، الكابران حمّو محاطا بمجموعة من الجنود، الذين أعرف جلّهم، يسرد عليهم قصصًا من الحرب، إذ كان يتحدّث ممثّلا بجسده. كنت على بعد بضع خطوات منهم. لمحني النحيلة فأشار إليّ بيده أن أنضمّ. كان يبتسم. لمحت إلى جواره اعزيز، كان ينفجر ضاحكًا والرذاذ يتطاير من فمه، ثمّ

رأيت بوعطية وإبراهيم يتقدمّان نحو المجموعة وهما يدخّنان. كان الكابران قد سحب خنجره يحرّكه في الهواء. شعرت بدوار. وضعت يدي على رأسي، لم أستطع رفع عينيّ عن الأرض. كان النحيلة قد بدأ يندهُ باسمي، تجاهلته، ودون مزيد من المقاومة، قرّرت التراجع إلى المقصورة، كان كافيًا أن أستلقي على السرير هناك ليستعيد ذهني توازنه. كان جلّ الجنود فوق يودّعون ميناء مارسيليا، نظرت إلى سقف المقصورة تنعكس عليه ظلال وأضواء غريبة. فكّرت أنّها ربما انعكاس لضوء الشمس على ماء البحر. وضعت يدي من جديد على ناصيتي حين شعرت بصداع. أغمضت عينيّ وتساءلت: ما سبب هذا الدوار الغريب عليّ يا ترى؟ هل هو دوار بحر أو دوار حرب؟

* * * * *

ليلًا، رست باستور ببورسعيد بعد أيام مخرت خلالها البحر الأبيض المتوسّط. أخبرونا أنّنا سنمكث لساعات لأنّنا سنخضع لمراقبة الجمارك. جاء ضباط مصريون، ببذل بنية ورمادية أنيقة، وخطوات طويلة واثقة، إلى مقصوراتنا. استجوبوا بعضنا حول إذا ما كان قد تمّ إكراهنا على الانضمام إلى الجيش الفرنسي، وخوض هذه الحرب تحت رايته، ثمّ أكّدوا لنا أنّهم يضمنون إرجاعنا إلى المغرب. فقط، يكفينا أن نشير لهم برغبتنا في ذلك. الرجوع؟ إلى أين؟ الآن؟ لا أحد حظي بفرصة الانضمام إلى العسكر الفرنسي سيكون بمقدوره التخلي عنها هكذا ببساطة، فخلف كلّ واحد منّا كانت دوافعه التي

يراها صحيحة ومعقولة. كنّا متيقّنين أن لا أحد منّا سيحرّك رأسه بالإيجاب، وأنّ الضباط حتما سيعودون خاويّي الوفاض.

مع بزوغ الفجر، كانت السفينة تباشر رحلتها عبر البحر الأحمر في اتجاه جيبوتي، حاملة، كما توقّعنا، العدد نفسه من الجنود.

**الثامن عشر من يناير 1951،**
**سايغون، الهند الصينية،**

رست باستور أخيرًا بميناء سايغون، بعد رحلة طويلة شاقة عبر المحيط الهندي. لأيّام لم نرَ غير الزرقة الممتدّة من كلّ الجهات. أضحى الوجود كلّه بحرًا. ولا أحد نجا من دوار المحيط. الجميع ظلّ يطرح ما بجوفه في البحر، على الأقلّ في اليومين الأولين. بدت باستور العملاقة كريشة تتقاذفها أمواج المحيط وتعبث بها عواصفه، متى سنصل؟ صار الجميع يتساءل. حتّى الكابران حمّو نال من بسالته المحيط. فلم أعد أسمع صوته الذي يجلجل الآذان، ولم أعد أراه يحمل خنجره يصوّبه في كلّ اتجاه. بوعطية انزوى في ركن المقصورة المظلم ولم يعد للجلوس رفقتنا إلّا حين وزّعوا علينا علب سجائر جديدة. إبراهيم كان ينام طوال النهار. يتناول وجبات الطعام ثمّ يعود إلى السرير. النحيلة فقط من كان يترقّب في كلّ ساعة توقّف اضطراب البحر حتّى يتسنّى له الصعود إلى السطح، إذ كان يعجبه أنّ يمدّ بصره عبر الصفحة الزرقاء. اعزيز كان يقف طوال الوقت بباب المقصورة يمدّ عنقه في الرواق، يضحك متفائلًا بما سيحمله قادم الأيام لنا. بدا تفاؤلًا مبالغًا فيه: "سنُمضي السنة الأولى في التدريبات. صباحًا سنتواجد داخل الثكنة، ومساء سنتجوّل بالمدينة إلى آخر وقت، نشرب المشروبات الباردة ونرقص رفقة الفتيات المليحات. في السنة الثانية سنحرس المعسكرات ليلًا، وبالنهار سنطارد هؤلاء القرويين العزل حتّى يختفوا وسط الغابات...

في السنة الثالثة سنكون قد قضينا عليهم وأرضخناهم للاستسلام، وسنحصل بالمقابل على تعويضات سمينة..."، يقاطعه الطيبي: "وكيف تعلم بكلّ ذلك؟"، "أخبرني بذلك الكابران المعطي..."، "وكيف تصدّق كلّ ذلك؟"، " لقد خاض الحرب الأخيرة بأوروبا. إنّه هناك، بالمقصورة المجاورة اذهب واسأله بنفسك."

عند استيقاظنا يوم الوصول إلى سايغون، لم نستطع أن نحدّد أيّ ساعة كانت. لقد كان الوقت نهارًا، لكن لم نكن نعلم أهو أوّل الصباح أم ضحى أم أنّها كانت الظهيرة، رحلة المحيط الطويلة جعلت كلّ الأشياء تختلط في رؤوسنا. حتّى نظام وجبات الطعام لم يعد كما ألفناه قبل استئناف المسير من ميناء جيبوتي. كنّا جميعا هاجعين بالمقصورات عندما تمّ إيقاظنا لتناول الإفطار، ثمّ طُلب منّا جمع حقائبنا استعدادا للوصول الوشيك، كان خبرا سعيدًا أنّنا بلغنا أخيرًا وجهتنا. صعدنا إلى الأسطح والشرفات. كانت الشمس في مكان ما من قبّة السماء. لكن لا أحد فكّر في البحث عنها، عن الوقت، لأنّ كلّ الأعناق كانت مشرئبّة صوب اليابسة التي بدت كخطوط متموّجة عند الأفق، والذي صار قريبًا وجليًّا لنا أكثر من أيّ وقت مضى.

ازداد خفقان قلبي شدّة بينما اليابسة تزداد دنوًّا، ألقيت نظرة على الوجوه القريبة، راحت تتلوّن بألوانها الأولى غير لون الشحوب الذي اعتراها طوال الأيّام الماضية. بدا وجه بوعطية، المستند بكلّ ثقله على حافّة الشرفة، منشرحًا دون أن تكون بين أنامله سيجارة. وكان اعزيز يطبّل بيديه على حديد حافّة الشرفة، ويدندن لحن أغنية أطلسية، كانت الابتسامة قد ارتسمت بعفوية على

محيّاي كذلك، انتبهت لها، وشعرت بعضلات وجهي تتمدّد، ولاحظت أنّ الحبور قد ملأ كلّ الوجوه. وحين دنت باستور من مياه الرصيف، كانت أصوات البهجة تطغى عاليًا فوق كلّ أصوات الوجود. بدت أقوى حتّى من صفير السفينة الصاخب وصوت اختراق حوّافها للأمواج.

أخيرا ستتنفّس صدورنا هواء غير رذاذ البحر المالح ورائحته الرطبة. أخيرًا ستنزل أجسادنا عن الأرجوحة العنيفة الدوارة التي لا تمنح للمعدة فرصة هضم هنيء للطعام، أخيرًا ستتلوّن حدقاتنا بألوان أخرى غير الأزرق الذي أطّر نظرنا عبر كلّ الأبعاد. أخيرًا ستطأ أقدامنا الأرض دون الشعور باهتزاز باعث للقلق. أخيرًا يمكن لأنامل أيدينا أن تعبث بالتراب.

رست أخيرًا باستور في الميناء، توقّف صخبها نهائيّا، وشرعت فرقة موسيقية عسكرية، شكّلت مربعًا فوق الرصيف القريب، بالنفخ في مزامير نحاسية لامعة. تحوّل الشعور بالغبطة إلى إحساس بالفخر. هل نحن، الفتية البؤساء في بلدهم، ذوو شأن بالنسبة للجيش الفرنسي؟ يخصّصون لاستقبالنا فوجًا موسيقيًا هكذا؟ صاح اعزيز من خلف أذنيّ حتّى تطاير رذاذه على خدود من جاوره: "يا للروعة! ألم أقل لكم إنّنا سنمضي أيّاما حلوة هنا؟ انظروا! هذا عربون الحياة السعيدة التي حدّثتكم عنها!".

ما إن خطوت على الجسر الذي يربط السفينة بالرصيف حتّى رفعت رأسي أستطلع المكان أمامي، كان تعب السفر ودواره يلحّ في الدفع ببدني سريعا خارج باستور، صفعت وجهي هبّة ريح، تحفّزت عيناي، وانفلتت قدماي تسابقان بعضهما تنشدان وطء أرض

الرصيف. كان في استقبالنا مجموعة من الضباط وضباط الصفّ في بذل ناصعة البياض، وقد ربضت خلفهم شاحنات عسكرية. عندما توقّف العزف، عمّ الصمت، وساد السكون، وبدا وكأنّ الميناء قد أوقف كلّ نشاطاته، وأصمت كلّ أصواته لأنّ السفينة الفرنسية الشاهقة قد ربضت على رصيفه محمّلة بجنود الفيلق الفرنسي الجدد. انتظمنا في صفوف عريضة متساوية متوازية، أدّينا التحية للضباط ومساعديهم الذين استقبلونا، ثمّ للضباط الذين قدموا رفقتنا، ثمّ أُمر كلّ صفّ بالسير نحو شاحنة. سريعا ما وجدنا أنفسنا جالسين داخل الشاحنات، ودائما ما كنت أجد إلى جانبي نفس المجموعة. بوعطيّة والنحيلة وإبراهيم، على وجه الخصوص. ربما لأنّ أرقامنا كانت متقاربة. أو ربما لأنّنا ننحدر من مناطق متجاورة. في ثكنة التدريب بجانكير سكنّا نحن الأربعة نفس الغرفة، في السفينة كنّا إلى جوار مجموعة اعزيز والمحجوب والطيبي وآخرين في نفس المقصورة، والآن في الشاحنة. أو ربما أنّ ذلك يحدث بالصدفة فقط؟

بالقاعدة العسكرية التي نُقلنا إليها بسايغون، وجدت هؤلاء الثلاثة إلى جواري مجدّدا، وبدا أنّ الضباط كانوا حريصين في اختيار الرفقة، لعلّهم كانوا يريدون تجنّب أيّ توتر قد يطرأ بالغرف المشتركة، أو أيّ تشاحن تثيره النزعات القبلية أو العرقية. رغم سيطرتهم التامة على الوضع، إلّا أنّ منطق الحرب يحتّم ذلك، وهذا ما ارتحنا له، نحن الجنود كذلك. على الأقلّ، سنجلس، نحن الأربعة، للعب بالورق، وتراشق النكات وسرد الحكايات الطريفة، فور وصلونا

إلى القاعدة، وُزّعت علينا بذل عسكرية غير تلك التي كانت بحوزتنا وأسلحة جديدة. وأخبرونا أنّ تواجدنا هنا مؤقّت، إذ سيتمّ ترحيلنا إلى أماكن أخرى معيّنة. بدا جليًّا أنّ الأمور تضحي أكثر جدّيّة الآن، وفي الوقت الذي بالكاد تخلّصنا فيه من تأثير دوار البحر، كان دوار آخر بدأ ينتاب رؤوسنا وقد انبرت طبول الحرب تُقرع في آذاننا، بينما رطوبة سايغون الشديدة تعكّر صفو أمزجتنا.

بعد يوم أو يومين من الراحة، عدنا للتدريبات، وأيضا الخروج في جولات صباحية، أشبه بالاستعراضات، بشوارع المدينة. كان ذلك ممتعا، لأنّ سايغون لم تكن كأيّ مدينة عرفناها. إنّها جوهرة الشرق الأقصى، كما ينعتونها. إنّها مزيج من حداثة أوروبا وأصالة آسيا الصينية. رأينا الفيتناميين في حياتهم المدينية، قبل أنّ نراهم في الحقول والقرى وساحات المعارك. أنت في سايغون، ترى عن يمينك تصاميم بنايات فرنسية، مباني إدارات وفنادق ومحلّات تجارية ومقاهي وكنائس، وعن يسارك ترى أشكال مبان آسيوية، أسواق ومطاعم ومعابد. ترى سيارات حديثة ودرّاجات الريكشا ثلاثية العجلات، يقودها آسيوي بقبّعة ضخمة على شكل خيمة، وزيّ صينيّ صيفيّ، بينما يجلس في استرخاء على المقعد الأمامي، تحت المظلّة الجلديّة، مقيم فرنسيّ أو ثريّة فيتنامية بملابس أوربية أنيقة. كانت عربات الريكشا والدراجات العادية والنارية تملأ شوارع سايغون، والتي تصطفّ على امتدادها أشجار مشذّبة الأغصان وأرصفة عريضة تكاد تلمع لشدّة نقائها، ونحن نسير في شوارع سايغون كنّا ننسى تماما أنّنا في بلد يشهد حربا، قد نكون عمّا قريب جزء منها.

## (الطائرة)

كانت السماء فوق رؤوسنا قبّة ذات لون رمادي فاتح، الطبقة الخفيفة من الغيوم، والتي جعلها وهج شمس الظهيرة خلفها تصير شفّافة، كانت تبلّل قبعاتنا وبدلاتنا بقطرات من رذاذ دافئ. كنّا نرفع رؤوسنا باستمرار صوب السماء، لم يكن توهّج الغيوم، ولا المطر ما جعلنا نفعل ذلك، بل طائرة النقل العسكري الراسية على مرمى أعيننا. كنّا نعلم منذ أيّام أنّه سيتمّ نقلنا جوًّا. كلّ مجموعة منّا سيتمّ إلحاقها بكتيبتها. قال لنا أحد الضباط بلهجة مغربية ثقيلة: "منذ تعيينكم صرتم عناصر من الفرقة الثانية للكتيبة السادسة للرماة المغاربة، لكن ذلك على الكُتيب الخاصة بكلّ واحد منكم فقط، لكن بعد أيّام ستكونون فعليّا ضمن الكتيبة السادسة. الجنديّ لا يُعرّف على الورق، بل في الميدان..."

شعرت بخفقات فخر بصدري، كنت أبتسم متطلّعًا لما هو آتٍ. وأعتقد أن الآخرين شعروا بذلك أيضًا.

صار ضجيج محرّك الطائرة صاخبًا الآن، يهزّ قلوبنا، وطقس هذا الصباح، وقد اجتمع فيه أكثر من فصل واحد، أضحى يطرد سكينة سايغون من قلوبنا، ويرمي بعقولنا خارج دائرة الإحساس بالأمان، صوب ساحات وغىً محتدمة. من سبق له أن خاض معركة من بيننا؟ الكابران حمّو والمعطي وحدهما؟ من سبق له ركوب طائرة؟ العريفان وحدهما؟ لا وقت للتفكير الآن وطرح الأسئلة. الحرب لن تمنحك فرصة استجماع أنفاسك. البارحة أقلعت طائرتان. واليوم يحلّ الدور علينا.

ثمّ جاء الأمر بحمل أمتعتنا والتقدم نحو طائرتنا. لكنّي غير قادر على وقف محركات التفكير في رأسي. فيم كنت أفكرّ وقتها؟ في رحلة قادمة سأخوضها؟ في السماء التي ستحملني طائرة عبر خوائها؟ في سطح الأرض الذي سيكون أبعد عنّي من أيّ وقت مضى؟ في أرض تركتها خلف البحار؟ في فرار أقدمت عليه ذات يوم بعيد رماني إلى هذه الأرض الغريبة؟

أخذت مكاني جنب إبراهيم. وقد جلس خلفنا بوعطية والنحيلة، وضعت الحزام حول خصري، وبينما الطائرة توجّه مقدّمتها صوب مدرج الإقلاع، انتابتني قناعة أنّي في هذه اللحظة بالذات أصير جنديًّا. محاربًا. لكن، وهي تبلغ سرعتها القصوى على المدرج، وقد راحت ترتفع عنه مثيرة بأجسادنا عاصفة من الضجيج الصاخب والاهتزاز العنيف، عندها، انتابتني قناعة أخرى، تنقض الأولى، وتصيّرها هباءً، نابعة عن رغبة غريبة، شديدة الإلحاح: لا أريد الإقلاع، لا أريد الذهاب إلى هايديو، لا أريد المشاركة في المعارك هناك، لا أريد أن أكون جنديًّا، لا أريد البقاء في فيتنام، أريد الرجوع إلى بلدي، الآن! ... "لا أحد يسمع استغاثات جنديّ يريد الانسحاب!". هذا ممّا ستعلّمني الحرب. فما بالك أنّه جنديّ يفكّر في ذلك مع نفسه، بينما كلّ الأجساد تتشبث بمقاعدها وجميع الأيادي تتمسّك بالأحزمة، وكلّ الأسنان تصطكّ وكلّ الجفون تنطبق بإصرار داخل رؤوس تواصل الاهتزاز. إنّها بداية الحرب التي حدّثونا عنها.

عبر مكبر صوت، حدّثنا ضابط الصفّ المرافق، عندما انخفضت شدّة الضجيج وتراجعت حدّة الاهتزازات، وذهب عنّا الروع:

"إنّنا نطير الآن في اتجاه شمال البلاد، سنحطّ بمدينة هايديو، إنّها قريبة من العاصمة هانوي، ستلتحقون بفرقتكم هناك، لقد عادت الآن لتستأنف عمليّاتها في المنطقة المسمّاة بدلتا تونكين، والدور المنوط بكم هو تعزيز صفوفها، لطرد المتمرّدين من الدلتا..." عندما أنهى ضابط الصف كلامه وعاد للجلوس. وبينما أحاول ترتيب ما قاله في رأسي حتّى يتسنّى لي استيعابه جيّدا ومن ثَمّ حفظه في ذاكرتي، ألقيت نظرة عبر النافذة الصغيرة عن يسار إبراهيم. كانت السماء تحيطنا من كلّ مكان. وكانت سحابات رماديّة اللون تسبح قريبا منّا. وتذكّرت الشمس. تمنّيت لو أنّها تقابل الآن وجهي، فتبدّد هذا الطقس الغامض الثقيل، وتطرد عن قلبي ما اعتراه من قلق غريب.

**أبريل 1951،**

**دلتا تونكين،**

## (قنديل البحر)

"أنت لا تستطيع أن تخمّن من أين أو متى أو كيف يهجمون، إنّهم ينبعثون من كلّ مكان، ذئاب تنقضّ من بين الشجر، عظايا ضخمة تتلوّن عبر الحشائش، صقور ثاقبة البصر تضرب كالسهام... وجوههم مفحّمة، مقلهم بيضاء زائغة، وأنيابهم حادّة بارزة. خطواتهم خفيفة مناورة، وأيديهم فؤوس بتّارة... يبترون الأطراف، يشربون الدم، ويسحلون الأسرى على وجوههم كالخراف...".

هكذا تحدّث إلينا الجنود القدامى - في الفترة الأولى التي قضيناها بثكنة هايديو - عن عدوّنا المرتقب، الفيت مين، وزعيمهم هو تشي منه.

الآن تبدأ الحرب، عندي وعند الآخرين رفقتي! حين تحمل سلاحك وتطأ الميدان، عندها تبدأ عندك الحرب الحقيقية! وميدان الحرب ليس ساحة نقف عندها يواجهنا العدوّ في الجهة المقابلة، كما كنت أتصوّره، بل إنّه يمتدّ على مئات الكيلومترات شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا. إنّه هذه البلاد كلّها، بسهولها وجبالها، أنهارها وسمائها... الهند الصينيّة كلّها، هي ميدان حرب.

بعد أسابيع مستقرّة بثكنة هايديو، تمّ نقلنا ذات صباح في عبّارة عبر نهر "بينه"، صوب المنطقة الواقعة بين هايديو وهايفونغ.

كنّا داخل العبّارة نقف، أو نجلس، متقاربين جدّا، متكدّسين. فأنت حين تحرّك رأسك لتنظر حولك، لا تصطدم إلّا بأجساد الآخرين. وكان الصمت مطبقا بشكل غريب. والحركة شبه معدومة، إلّا الرؤوس والعيون التي تدور بحثًا عن فسحة ضيّقة للنظر عبرها، صوب السماء أو الحقول المترامية.

خلال الأيّام السابقة، ونحن بثكنة هايديو، أخبرنا أحد الضباط، بما ينتظرنا هنا، بدلتا النهر الأحمر. "العدّو في كلّ مكان. الفيت مين منتشرون كالفطر السّام في كلّ البقاع. الجنرال جياب زرعهم عبر كلّ القرى والحقول والأدغال، بغية الإطباق على العاصمة هانوي. ومهمّتنا هي أن نطهّر الدلتا، كلّها، من شرّهم، أن نقتلع تواجدهم بأرضها من الجذور. لذلك أطلق الجنرال لاس دو تاسينيي هذه العمليّة، عمليّة قنديل البحر...".

كان هناك المزيد من العبّارات التي نقلت الجنود، الكثير من الجنود وبعض الآليات والشاحنات أيضا... إلى جوارنا نحن المشاة المغاربة، ميّزت من بين الملامح، جنودًا فرنسيين ومغاربيّين، وآخرين فيتناميين. في مكان نزولنا رأيت أطفالًا بملابس خفيفة زاهية وقبعات آسيوية يرعون أبقارًا ضخمة ذات قرون سميكة طويلة. رأيت أحدهم يستلقي في استرخاء على بطنه على ظهر بقرة، يتابع خطواتنا في لا مبالاة، يرتدي ملابس أوربية صيفية، رأيت شعره الأسود الناعم، وعينيه الضيقتين، ووجه الدائري، وقلت إن هؤلاء الفيتناميين متشابهون إلى حدّ كبير، كأنّهم توائم بالآلاف. ثمّ مضينا عبر سهل يضمّ حقول أرزّ. رأيت بيوت الفيتناميين المبنية

من القصب والقشّ. وكانت كلّما تمدّدت تلك الحقول ذات السنابل الصفراء، وتكرّرت مشاهد هؤلاء الأطفال الرعاة، واستنشقت رائحة قرب موسم الحصاد، إلّا ووجدت ذاكرتي في كلّ مرة تعود لتقلّني إلى مراعي الحوامد وقطيع الماعز وخيام دوّار بو عيّاد. وبدا لي العالم، وأنا أعبر سهل الأرز ذاك، حاملا بندقّيتي الرشاشة الماط ٤٩، واضعا على رأسي قبّعة شمسية دائرية، متشابها. وأدركت أنّ ثمّة أشياء وأمورًا توّحد الإنسان مهما اختلفت أرضه أو لغته أو شكله. ورغم كلّ ما شهدت من أحداث غريبة وتجارب مختلفة في حياتي السابقة، إلّا أنّ حرب الهند الصينية، وقبل حتّى أن أضع قدميّ بأرضها، جعلت عينيّ تتفتحان، وأذنيّ تنتصبان، وعقلي يتمدّد...

كان هذا أوّل خروج لي بمعركة، ولم أكن بعد أعلم إلى أين نحن فعلا ماضون، ولم أكن أفكّر في المغزى من ذلك، ولم أكن أدري أنّها مجرّد ساعات فقط، هي ما عاد يفصلني عن مواجهة جحيم جديد، حيث ستبتلع تفكيري دهشة عارمة، ستشغله عن التفكير خارج نطاقها زمنا طويلًا.

دون أيّ تهديد من العدوّ، قطعنا مسافة طويلة عبر سهل فسيح. تجاوزنا أنهارًا ومستنقعًا، ثم لمحنا قرية يتخلّلها دغل من أشجار متفاوتة الطول والكثافة. عندها نبّهنا القادة إلى توخّي الحذر، وخفض رؤوسنا ما استطعنا، حتّى إذا اقتربنا منها مسافة جعلت أبعادها وأشياءها تتجلّى لنا توقّفنا، وبدأنا بحفر الخنادق، قبل أن يلتحق بنا رجال المدفعية عبر الشاحنات.

بعد بضع ساعات من الاستعداد أخذنا مواقعنا في انتظار جديد الأوامر. فجأة بدأ كل شيء، رمينا نحن - المشاة - رجال الفيت مين - الذين بدا أنّهم انتبهوا لتواجدنا، فبادرونا برصاص بنادقهم - برشاشاتنا الأرضية. وكانت مجموعتنا - حديثة العهد بالحرب - في الصفوف الخلفية، نتابع بحرص وفي ذهول ما يحدث بخطّ النار أمامنا. ثمّ، وبعد وقت ليس بالطويل، قصفت كتيبة المدفعيّين القرية بالمدفعية الخفيفة. لم يستغرق هجومنا هذا وقتًا كثيرًا. إذ، سرعان ما طلب منّا نحن كتائب المشاة بدخول القرية. خلّف هجومنا بضعة جرحى وأسرى في صفوف العدّو، بينما لاذ الآخرون بالفرار.

كانت هذه أوّل جرعة أتلقّاها من الحرب. جرعة مهدّئة، تتسرّب عبر المسامّ المتعرّقة، ثمّ تصعد عبر السيالة العصبية إلى الدماغ، لتخبرك أن كلّ شيء، على ما يرام، لا شيء يدعو للقلق، فكلّ المخاطر التي تتوهّمها محدقة هي تحت السيطرة.

دغل آخر، أكبر من الأوّل وأشدّ كثافة، كانت القرية محجوبة خلف أشجاره، إلى درجة أنّنا شككنا في مسألة وجودها هناك أصلا. تجاوزنا نهرا دافئا. حفرنا الخنادق، وراكمنا جدارًا من أكياس الرمل، أنا وباقي جنود المجموعة، التي صار يترأّسها الآن ضابط صفّ فرنسيّ يساعده الكابران المعطي، قبعنا بالطرف الأيمن من الخندق، حيث تنخفض الأرض أكثر، فتمنح مزيدًا من الحماية والستر، بينما الكابران حمّو رفقة مجموعة من الجنود المغاربة القدامى، يتشاركون وفرقًا من الجنود الفيتناميين والفرنسيين التواجد بالمنطقة الوسطى منه، حيث يتواجهون والدغل مباشرة،

يركّزون فوهات بنادقهم ورشّاشاتهم الأرضية على منافذه الضيّقة. أمّا عند الجهة اليسرى، كان رجال المدفعيّة يجهّزون مدافعهم ذات الفوهات الكبيرة هذه المرّة.

الآن، يتشكّل على مرأى عينيّ مشهد آخر من مشاهد الحرب، مغاير تمامًا لكلّ ما خطر بخيالي: سرب من القاذفات المقاتلة يخترق بعلوّ متوسّط السماء المقابلة، محدثًا أزيزًا كطنين نحل يحوم حول الرأس، قبل أن يمطر الدغل بصواريخ متفجرة، ويصمّ الآذان بدويّ اهتزّ له جسدي وأجساد من يجاورني، وارتفعت إلى ما فوق سموّ الأشجار غيوم عمودية من غبار ودخان. وما كدنا نستفيق من وقع الضربة الأولى، حتّى حام السرب مجدّدًا حول الدغل، ليكرّر ضرباته، ثمّ سمعنا أزيزًا أعنف، كأنّه هدير سيل جارف يتقدّم عبر السماء، أسراب من قاذفات القنابل الثقيلة تعبر بعلوّ أدنى فوق الدغل، هي الأخرى أمطرت مباشرة بحمولتها العنيفة الأرض، فجعلت التراب وما تنبت الأرض يهتزّ على شكل جبل تراب وشظايا شجر يحيطه دخان أسود. ارتج المكان بنا ناثرا غباره على وجوهنا، فتضبّبت أبصارنا، وانقطعت عن أسماعنا كلّ أصوات الوجود...

عمّ الصمت الرهيب زمنًا قصيرًا، ثمّ انهالت علينا الأوامر بالتقدّم. وبينما نحن نركض بظهور منحنية، راح رجال المدفعية يطلقون قذائفهم. كانت مجموعتنا في المؤخرة. راح الكابران المعطي يحفّزنا بكلمات غير مفهومة على مواصلة التقدّم لمّا رأى أقدامنا تثاقلت إلى الأرض اقتربنا أكثر، كانت المدافع تواصل قصفها، وبعض قذائفها تتساقط أمام المقدّمة. لم أعد أحسّ بقدميّ، ولا بأنامل يديّ

المتصلّبة حول بندقيّتي الرشاشة. ثمّ وكأنّي ولجت غيمة من ظلام. شممت رائحة القنابل المحترقة، وكدت أهوي في حفرة أحدثتها قذيفة مدفع. كم صار يفصلنا عن مداخل الدغل؟ كم تقدّمنا لحدّ الآن؟ كم صارت تبعد عنّا كتائب المقدّمة ومن خلفها؟ إنّي أواصل الركض. أسحق بقاع حذائي ما يعترض سبيله من سنابل أرز. وكنت أسمع لهاث بوعطية في سعي حثيث منه كيلا يتخلّف عن المجموعة. كنت قادرًا على تمييز صوت أنفاسه المتعثّرة. تخيّلته كعجل جافل، تحفر حوافره الأرض، ويطير المخاط على أحد جانبيّ وجهه. ثمّ بدأ الرصاص يفرقع، من ضابط صفّ أمامنا جاء الأمر: "اخفضوا قاماتكم وواصلوا التقدم!". لمّا بلغ الجنود المتقدّمون حفرًا عريضة شكّلتها قنابل الطائرات، رموا أنفسهم داخلها. ثمّ جاءنا الأمر من ضابط الصفّ نفسه بأن يستلقي الجميع على بطنه. عاد صوت رصاص العدوّ ينخر الأرجاء. صوّب جنود المقدّمة والذين خلفهم فوهات رشّاشاتهم الأرضية وبنادقهم، ثمّ أطلقوا وابل رصاص لردع الفيت مين المستترين خلف الأشجار وداخل الخنادق. تلقّى الكابران المعطي إشارة من الأمام. فأمرنا بالتقدّم، زحفا على بطوننا، إلى جهة اليسار، حيث الحفر التي أحدثتها القنابل.

صارت أصوات الأنفاس اللاهثة تصلني من كلّ صوب. وأضحى بوعطية الآن هو من يتقدّمنا. حتى الكابران المعطي لم يكن قادرًا على مجاراة زحفه. فقد كانت له ذراعان قويّتان، وكتفان عريضان. بدا وهو يمضي قدمًا، وكأنّه سبّاح بارع يسبح في التراب، كانت مشكلة بوعطية دومًا هي الركض والقفز، حتّى عندما كنّا

نعدو في الغابات بالمغرب إبّان فترة التدريب، كان دائمًا ما يتخلّف عنّا، ويظلّ يجاهد أنفاسه للحاق بنا. وكان يقول لنا: "لعلّه بسبب كثرة ما أدخّنه من سجائر مثلما أخبرنا الضابط لومبير عن أضرار السجائر". بدا تفسير الضابط لومبير منطقيا لنا جميعًا، بل إن كلام القادة هو الأصحّ دومًا. لكنّ بوعطية أفصح لي ذات يوم، بينما توقّفنا عن رحلة الركض المعتادة في طريق العودة من غابة بنسليمان نحو معسكر جانكير: "ليست السجائر هي السبب يا بوعزة! أنا لا أدخّن حتّى كثيرًا. إخوتي جميعا يلهثون عندما يركضون، ويجدون صعوبة في مجاراة صبية الدوار الآخرين..."، واصل وهو يستجمع أنفاسه: "أتعلم؟ وحسب ما قاله الضابط لومبير، منذ فتحت عينيّ ووالدي لم يكفّ عن تدخين السبسي. يدخّنه في الصباح، وقت الغداء، وفي المساء... لعلّه هو من نقل إلينا هذا اللهاث عبر دمه!".

تكدّسنا داخل الحفر. أصحاب البنادق العادية هم من أخذوا مواقع التصويب. أما نحن حاملي البنادق الرشاشة، جلسنا القرفصاء في قيعان الحفر، وكان بوعطية قد مضى إلى حفرة أخرى. رفقتي، رأيت إبراهيم يصوّب بندقيّته، كانت يداه ترتعشان. وقبالتي، لمحت وجه اعزيز من بين الرؤوس والرّكب المتقاطعة، مطبقًا الرشاش بكلتا يديه على صدره. كان وجهه شديد الصفرة، وعيناه جاحظتان، وفمه قد انكمش في تيبس، أين غابت ضحكته؟ وكيف انقطع حديثه المبتهج المسترسل؟ شعرت بصدري يهتزّ، وودت لو أستطيع رؤية وجهي الآن في مرآة. هل أصابه الشحوب هو الآخر؟ أحسّ بفمي متيبّسًا. انتبهت أنّي عطشان. أكاد أختنق من العطش. الحرّ يشتدّ، قنّينة الماء

بحقيبة الظهر، لكنّي لا أجد فسحة للدوران وتناولها، هل عيناي الآن جاحظتان؟ أحس بهما تتجاوزان المحجرين، هل هما كذلك فعلا؟ الهواء يقلّ داخل الحفرة، أجد صعوبة في التنفس بارتياح. ما هذا الصوت؟ رصاصة؟ من أطلق رصاصة؟ هل إبراهيم فعل؟ أم أحد الأربعة الآخرين إلى جواره؟ الرصاص ينطلق الآن من الحفر الأخرى. هل تلقّوا أوامر بالرمي؟ لكن لا رصاص يجيء تجاه حفرنا من العدو. تبادل الرصاص مع العدو يحدث هناك، عند الحفر والخنادق البعيدة، أنظر إلى فوق، فلا أرى غير ضباب أسود يحجب السماء، وأفكّر: ماذا لو رموا حفرتنا بقنبلة؟ أو لعلّ القنبلة تجيء من نيران صديقة، ماذا لو حدث ذلك؟ سنطمر هنا حتمًا، في هذه الأرض البعيدة.

إبراهيم والجنود الآخرون الواقفون لا يتوقّفون عن تحرير رصاصات بنادقهم، لكنّ العدو لا يصوّب جهتنا، بيد أنّي أظل قلقًا، واعزيز أيضا، لم يكشف بعد عن قواطعه العليا المائلة إلى الأمام بابتسامته البلهاء المعهودة، متى ينتهي كابوس الحفرة هذا أخيرًا؟ أسمع صياحًا في الخارج، يبدو كأوامر ملحّة بالتقدّم. رفعت رأسي، فاصطدم بصري بشعاع الشمس تتوسّط السماء يخترق سحب الدخان، اشتدّ أزيز الرصاص القادم من الخارج البعيد. الجنود الواقفون توقّفوا لتلقيم بنادقهم ثمّ عادوا للإطلاق بشكل مسترسل، بدا أنّهم قد تلقّوا أوامر بذلك، حتمًا ثمّة أمر ما يحدث. وقبل أن أخرج من الحيرة بين التفاؤل أو القلق بالمستجدّ الطارئ، كان صوت الكابران المعطي يتخطّى صخب الرصاص ويتكرّر بأن نغادر الحفر جميعًا ونتقدم.

فرق المشاة التي تضمّ الجنود المغاربة القدامى والفيتناميين والفرنسيين، أحاطت بالدغل من الجهة اليمنى، وأرغمت حماة المدخل المفضي مباشرة إلى القرية على الاستسلام، بينما كان يواصل الجنود الآخرون بخنادق خطّ المواجهة، شغل الفيت مين الذين يقابلونهم بتبادل الرصاص. عندها تقدّمنا نحن، دون أدنى مقاومة. كانت الغاية من تحرّكنا هو سدّ منافذ الجهة اليسرى أمام أيّ محاولة فرار أو التفاف قد يقدم عليها العدوّ.

لمّا علمت مجموعة الفيت مين الذين يحرسون المداخل الأماميّة أن قريتهم أضحت تحت سيطرتنا تراجعوا صوبها، وقد أصاب الارتباك صفوفهم. عندها لم يتردّد جنودنا الذين كانوا يواجهونهم في اللحاق بهم ورمي ظهورهم. فتمّ الإطباق عليهم.

بعد زمن قصير، شاهدنا جنود الفيت مين يخرجون من قريتهم، من دغلهم، بقاماتهم الصغيرة، عراة الصدور، بسراويل قصيرة، ووجوه مدوّرة، وعيون ضيّقة، يضعون أيديهم فوق رؤوسهم، يهرولون الخطى في فزع صوب أَسرهم. شاهدنا الجرحى منهم، والقتلى أيضًا، وسط الخنادق، عند سفوح الأشجار، وعلى أبواب القرية.

كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها الفيت مين عن قرب هكذا. لم يكونوا مختلفين أبدًا عن هؤلاء الصبية الذين يرعون الأبقار عند ضفة النهر.

انتهى دورنا في عمليّة قنديل البحر، بتطهير قرى شمال هايفونغ من وجود الفيت مين، بينما كانت فرق أخرى تواصل مهمّاتها

بمناطق أخرى ضمن نفس العمليّة. عدنا إلى ثكنة هايديو، ظننا أنّ كلّ شيء يسير نحو إنهاء الأمر الآن، ولم نكن ندري أنّ معركتنا تلك كانت البداية فقط. كانت مشاهد قتلى الفيت مين، وقتلانا أيضًا، ما تزال عالقة برؤوسنا، ونحن نحاول يأسًا مسح ذلك عنها والرجوع بذاكرتنا إلى ما قبل المعركة. لكنّها تأبى إلّا البقاء هناك أمام أعيننا، ترفض بعناد شديد تحرير أفكارنا.

قال بوعيطة وقد جلس ذات مساء على سريره ملقيًا ظهره إلى ركن الحائط، يدخن في استرسال، وقد ضاعت نظرته في سحب الدخان:

- "هل سيحدث و نضطرّ لقتل أحد يومًا؟"

كان سؤالًا صعبًا. بالأحرى صعبًا عليّ. لأنّه لم يكن كذلك على إبراهيم:

- "إن لم تقتل يا بوعطية ستُقتل. قال ذلك دون أن يرفع رأسه عن حبّة جوز هند، يعارك لكسر قشرتها بسكّينه العريض ذي القبضة الجلدية السوداء، وقد فاض العرق على ناصيته البارزة.

- "لقد رأيتك ترمي الرصاص على العدوّ حين كنّا بالحفر، وكأنّ بينك وبينهم ثأرًا...". قال النحيلة ممدّدًا على لحاف السرير الخشبيّ.

ردّ إبراهيم:

- "أردت أن أبيدهم عن بكرة أبيهم."

- "اسمع ماذا قال يا بوعطية!". ثمّ ضحك، وضحك آخران كانا معنا بالغرفة نسيت اسميهما.

"هل سيحدث و نضطرّ لقتل أحد يوماً؟"، كم هو ثقيل هذا السؤال على ذهني! وردّ إبراهيم، كان أثقل. لكنّهما لخّصا الشيء الكثير من مشاهد علقت بنا ومشاعر متناقضة اعترتنا بعد قنديل البحر. أصابني في تلك الأيّام أرق فظيع، وكوابيس تقضّ مضجعي كلّ ليلة، أرى قطيع الماعز في بوعياد أصابته قنبلة من السماء فصيرّته دخانًا شديد السواد، ورأيت الجنديّ الفرنسيّ، الذي كانوا يعالجون جراحه بعد المعركة، يمتطي حصانًا يعدو به عبر سهل فسيح، يسيل الدم من أحد ذراعيه، تطارده الذئاب، ورأيت جنود فيتمين قتلى قاموا من موتهم، يزحفون على بطونهم صوبي، بأيديهم مناجل، أحاول الركض بعيدًا عنهم، فأكتشف أنّ قدمي موثوقة إلى وتد. ولمّا أردت فكّ عقدة الحبل، أطبقت يد ثقيلة على كتفي، التفت فوجدته أبي، "لقد أمسكتك يا بن الحرام!"، صرخ في وجهي، فصرخت في سكون ليل الثكنة.

أخبرني النحيلة أنّي أصرخ كلّ ليلة. عقّب بوعطيّة: "كلّما صرخت أستيقظ، أشعل سيجارة ولا أستطيع الرجوع للنوم! " وأضاف: "أنا أيضا أرى كوابيس!"، ضحك إبراهيم: "أنا أرى في المنام أشياء جميلة، أراني دائما مع رجال المدفعية، نحشو الفوهات وندكّ الفيت مين مع الأرض!"

لكنّ كوابيس الليل لن تعدو شيئًا عندما سنعود بعد أيّام قليلة صوب معارك جديدة، والتي طبعًا لن يسمح لنا فيها بالتواجد بالصفوف الخلفية، نراقب ونركض ونزحف على بطوننا فقط.

## (دلتا تونكين)

كم عدد المعارك التي خضتها، بدلتا تونكين، بعد عمليّة قنديل البحر؟ لا أعلم صراحة العدد، ولا أستطيع تذكّرها جميعها، بل أنا لا أذكر إلّا القليل منها، تفاصيلها تنفلت منّي، والأحداث والتواريخ والأماكن تختلط عليّ. أنا أتذكرّ قنديل البحر هكذا جيّدًا لأنّها معركتي الأولى. مثلما أتذكّر تفاصيل رحلة البحر، وسايغون، وطفولتي البعيدة. لكن، تفاصيل المعارك! الحرب يا بنيّ تجعل ذاكرتك مشوّشة، وحقائقها مشوّهة.

لكن لا تنتقص من قدراتي على الاستذكار! حتّى وإن كانت الأحداث تتراكم دونما ترتيب ووضوح في رأسي، إلّا أنّي أستطيع استخراج بعضها، وإخبارك بها. حسنًا! بعد قنديل البحر، قُتل الضابط برنار دو لاتر دو تاسينيي، الابن الوحيد للجنرال جون دو لاتر دو تاسينيي، المفوّض السامي بالهند الصينية، قتله الفيت مين، أصابوه بالرصاص بقمّة جبل نينه بينه خلال معركة "دي داي"... حسنا، يمكنك أن تتصوّر ردة فعل الجيش الفرنسي.

في ذلك الوقت، كانت كتيبتنا قد نصبت خيام معسكرها في هدوء بمنطقة بان باراسول، شمال هايديو والعاصمة هانوي، وسرعان ما بلغنا خبر نجاح الجيش الفرنسي في تحرير جبل نينه بينه، ثمّ جاءت الأوامر بنقل معسكرنا إلى مستنقع الأنهار المحيطة بسفح الجبل، بين نهري سونغ داي وسونغ فاك. قصد تحصين الجبل بعد تحريره ،كانت فترة هادئة، وكان الوقت صيفًا، ممّا جعلنا مرتاحين ومنتعشين للتواجد على ضفف الأنهار. وماكاد الخريف يحلّ حتّى أطلقت عمليّة أخرى، وخضنا معارك ضارية لتحرير قرى شمال قناة بامبوس، هناك تجلّت حقيقة وصف الجنود القدامى للفيتمين.

كنّا نخرج أحيانا لتمشيط مناطق سيطرتنا، فلا ندري من أين ينبعثون، يرشقوننا بالرصاص ويرمون بالقنابل اليدويّة ثم يختفون، نرمقهم في وقت هجومهم الوجيز، عراة، وجوههم مطليّة بأوحال سوداء، ورؤوسهم مشدودة بشرائط. يقفزون بين الجداول برشاقة، ويختفون وسط الأجمات في خفةّ النمس. في مرات كثيرة شاهدناهم يغوصون تحت مياه الأنهار، لا تظهر غير قصبات الخيزران توصل أفواههم بالهواء، يتربّصون بنا في كلّ مكان، يضربون ويندثرون، يغيرون على معسكراتنا؛ يضرمون النار، يرموننا بالرصاص، ثم يختطفون جنديًّا من مناوبة الحراسة، أو جنديًّا حاصروه فوضع السلاح.

في هذه المرحلة، وبعدها، أثناء عمليّات على ضفّتي النهر الأسود غربًا (معركة هوا بينه)، بتنا لا نهاب اللون الأحمر، أو النظر إلى وجوه القتلى، كيف وقد صرنا نحن أيضًا قتلة. لقد كان يسعفني سلاحي الرشاش كثيرًا عندما يواجهني أحدهم، أو تلتقط حواسي مرور هامته قريبًا، فالرصاص يتدفّق من فوهة سلاحي سريعًا، بكثافة ما قد يطيح بفيل في بضع ثوان. الرشاش يفتقد للدقة، نعم. لكنّ الرصاص الغزير، تصاحبه أرجحة الذراعين قليلًا، يمنحك فرصة أوفر لإصابة الهدف، لا سيما إن كان متحرّكًا. وما كنّا نخشاه خشيتنا تلقّي رصاصة قاتلة، هو أن نقع في شرك أسرهم، الأسر هو ذلك المجهول الذي تنعزل فيه عن رفاقك، وقد صرت تحت رحمة سياط عدوّك.

لقد رأيتهم يسحلون أحد جنودنا على ظهره صوب النهر.

كنّا نطاردهم عند أجمة بسفح جبل هوا بينه، فتمكّنوا من اصطياده لمّا خرج إلى ضفّة النهر حيث الفضاء كان مفتوحًا. كنت خلفه مباشرة، على مسافة الخمسين مترًا تقريبًا، لكن فجأة حجبته عن بصري انعطافات المسالك بين الأشجار، واصلت الركض، لكن لمّا وصلتني من الأمام أصوات مهددة تريّثت. لم أستطع إبصارهم، نظرت خلفي، كان رفاقنا ما يزالون متوارين في البعيد. لمّا انتبهت إلى أنّ الأصوات المتوعّدة قد أضحت تبتعد، رميت خطواتي صوب مخرج الدغل في حذر. عندها رأيتهم يسحبونه من ذراعيه بين سيقان أعشاب سامقة مائلة، كانوا أربعة، عراة إلّا من سراويل خفيفة قصيرة، تلمع عظام سيقانهم الحادّة النحيلة، وحول رؤوسهم تلتفّ أشرطة تتدلّى أطرافها على رقابهم القصيرة. وكان هو يستغيث بصوت مبحوح، ويركل برجليه في محاولات يائسة للانفلات.

لم يشغلني التفكير في أين سيأخذونه، هل سيعبرون به النهر فعلًا، أم إلى مكان على نفس هذه الضفة بالجوار... وإنّما فيما عليّ الإقدام عليه. كنت أفكّر في الوقت المناسب، والكيفية الملائمة، كانت الاحتمالات تختلط برأسي بينما أرى خطاهم تتسارع به بعيدًا، توقّف تفكيري، ركضت خطوات قليلة، وجّهت بندقيّتي الرشّاشة وصوّبت، أطلقت دزينة من الرصاص، لم أفكرّ في إن كان جسدي محميًّا من ردّة فعلهم، أم لا ، أطلقت العنان لسلاحي وفقط، هذا ما همّني أثناء تلك اللحظة، سقط أحدهم، ارتبك الآخرون، حنوا ظهورهم ثم نطّوا إلى داخل النهر، قبل أن يختفوا تحت الماء، لا تظهر إلّا أجزاء من أيديهم تحمل البنادق في الهواء. نهض الجندي ثم ركض صوبي،

كان الفزع الأصفر قد التهم وجهه، وأعاد تشكيل ملامحه في بشاعة مفرطة، لكنه لم يتوقف إلى جواري ولم ينبس بكلمة. سمعت حشرجة أنفاسه وهو يتجاوزني مذعورًا في اتجاه الأجمة، كان جنود الفيت مين الثلاثة قد بلغوا الضفة الأخرى، انحنوا ثم اختفوا وسط الحشائش. استلقيت على بطني خشية أن يباغتني أحدهم برصاصة، وانتظرت إلى أن التحق بي باقي الجنود. فقمنا بحمل أسيرنا المصاب وجندّينا المفزوع إلى المعسكر.

## (سات باغود)

وكأنّ ليلًا ثقيلًا مطبقًا نزل فجأة، غيمة غبار ودخان تلفّني، تحول بيني وبين الأشياء، يضيع سمعي في جبٍّ عميق، لا صوت، لا همس، غير طنين مسترسل فظيع. هل ما زلت واقفًا على قدميّ، أم تراني جثوت على ركبتيّ، أم أنّي منبطح على الأرض؟ لا يصلني عبر حوّاسي شيء، لا أشعر بجسدي. ذاكرتي تطفو على سطح اللحظة، تظلّ تتمدّد هناك، بينما الزمن كأنّه كفّ عن التقدّم إلى الأمام، يدور بي في دوامة من عدم. أترقّب في الفراغ، ومضة ضوءٍ أو طرقًا على باب، هبّة ريح أو نسمة هواء، أن أحسّ بشيء، أن تنتشلني يد إلى الخارج.

لوهلة، تنسلّ الذاكرة، تقفز خارج دوامة الزمن المتوقّف وترجع بشيء، كوميض برق شقّ السماء عند الأفق، فأضاء وجه الأرض الغارق في ليلٍ حالك. أتذكّر أنّي لم أكن لوحدي، أين الآخرون؟ أصواتهم، صيحاتهم؟ أين اندثر صوت الرصاص وأزيز المدافع؟ بل أين أنا؟ هل أنا حقًّا في جحيم معركة؟ أم طريح الفراش؟ مريض؟ مصاب؟ أم أنّي في كابوس جهنّمي لعين؟ أين خيط الحقيقة الرفيع لألمسه؟

تتراجع حدّة الطنين، فتبدأ أصوات كثيرة، متداخلة، متناثرة، متنافرة، في بلوغ أذنيّ. ويخفّ سواد غيمة السديم التي تلفّني، نحو لون رماديّ غامق تخترقه بقع سود وبنفسجيّة، شيئًا فشيئًا أشعر بجسدي، أوّلًا شعرت بفكّيّ مطبقين على بعضيهما بقوّة، ثمّ

شعرت بالأرض تلامس بطني، تلامس قدميّ، وشعرت بثقل الخوذة على رأسي، وبحزامها يشدّ على ذقني. ثم اكتشفت أنّي متّكئ على مرفقيّ، وأنّ يديّ تحملان رشاشا مصوّبًا إلى الأمام. وبينما راح شمّي يميّز روائح بارود محترق وغبار ودخان أرض تستعر، استوعبت أخيرًا أنّي متواجد داخل خندق، فعادت ذاكرتي تسرد أمامي تفاصيل اللحظات الأخيرة: قنبلة يدوية سقطت داخل الخندق.

يصلني الآن صوت فظيع، صراخ، أحدهم نالت منه القنبلة إلى جواري، أرفع رأسي قليلا، أنظر إلى الأمام، فلا أرى غير الغبار والدخان، عاصفة من الرصاص تصطدم بأكياس الرمل، ثمّ قذائف من راجمات العدو التقليدية تتساقط في الخنادق المجاورة. مزيد من الصراخ، النقيب الفرنسي، لوبورجوا، قائد سريّتنا، يصدر أوامره بمغادرة الخنادق والتقدم إلى الأمام، يتلكّأ معظم الجنود، والصراخ يصير أنينًا مسترسلًا، الرصاص يجيء من كلّ صوب، تحدث بلبلة في صفوفنا، أصوات متداخلة واستجداء يصدر عن كلّ الحفر والخنادق. تبدأ مدفعيّتنا في القصف، قنابلها تتساقط في كلّ مكان، الآن تصير احتمالية إصابتنا أكبر. هل أقف وأتقدّم، أم أتريّث وأواصل رمي الرصاص حتّى وإن كنت لا أستبين الأهداف؟ أعي الآن جيّدا أنّ الموت متربّص بنا في كلّ مكان. داخل الخنادق وخارجها، تنتابني رغبة شديدة في البكاء، وجهي إلى التراب، أحسّ بطعمه اللزج على لساني، أعلم أنّ عليّ رفع رأسي إن أردت استطلاع الأمام، والرصاص يستمرّ في الطرق على جدار الرمل، سيكون التفكير فقط في فعل ذلك نوعًا من الجنون .

يبدأ بعض الجنود بالخروج من الخنادق والتقدّم إلى الأمام، يفعلون ذلك زحفًا على البطون، من كان إلى جواري بنفس الخندق؟ النحيلة واعزيز وخمسة أو ستة جنود آخرين؟

كانت سريتنا، التي تضمّ خمسين جنديًا أو ما يزيد، قد توجّهت صيف ١٩٥٢ إلى المناطق ما بين هايديو وهايفونغ، ضمن عمليّة بوليرو، وكنّا الآن في مرحلتها الثالثة، قرب منطقة تسمّى سات باغود، إنّها أكثر من سنة من المعارك والمطاردات والتنقّل بين الأنهار والمستنقعات وحقول الأرز الغارقة في برك من ماء. لا نكاد نلتقط أنفاسنا حتّى يباغتنا العدوّ أو نفاجأ بإخراجنا في عمليّة جديدة. منذ زمن طويل ونحن في الخلاء، يحمل كلّ منّا خيمته الصغيرة على ظهره، حين يحلّ الظلام ننصب المعسكر ونوقد النار، في أحسن الأحوال يصير المعسكر ثابتًا، فنحيطه بحفر الحراسة، ونتناوب بالليل على المراقبة.

يبدأ الجنود إلى جواري الزحف خارج الخندق، تواصل مدفعيّتنا القصف، البقاء في الخندق أو الخروج سيان الآن، العرق يتصبّب غزيرًا على جبهتي ووجهي، ورائحة العشب المحروق تزكم أنفي، يصل أذنيّ أنين مكتوم من الجريح إلى جواري، رغم الضجيج العنيف الذي يملأ الأرض والسماء، ألقي نظرة عليه، كان أحد الجنود يسنده إلى صدره في وضعية جلوس، وعند نهاية قدميه الممدّدتين تشكّلت بقعة حمراء داكنة، يتصبّب وجهه عرقا، وجفناه مطبقان. أتذكّر أسئلة، لطالما طرحتها على نفسي، بينما أهمّ بسحب جسدي خارج الخندق: "من أجل ماذا نحن هنا، نَقتل ونُقتل؟ نَجرح ونُجرح؟

نَأسِر ونُؤْسَر؟ هذه الحرب ليست حربنا، وهذه الأرض، أرض من؟ الفيتناميين الذين نحارب إلى جوارهم أم الفيت مين الذين نحن نحاربهم؟ ماذا تفعل فرنسا هنا؟ بل ماذا نفعل نحن هنا في هذه البلاد الغريبة البعيدة؟".

ظللت أواصل زحفي الثقيل صوب المجهول، بينما تواصل القنابل السقوط، والرصاص بدا وكأنّه يجيء من كلّ صوب، كنت أتوقّف عن الحركة زمنًا طويلًا، أتخشّب في مكاني، ألتصق بالأرض، أنفي إلى التراب، وكتفاي يتمدّدان لحماية عنقي من شظايا متناثرة، بينما تتكفّل الخوذة بحماية الرأس من فوق، في وضعية الاستلقاء هذه، والوجه إلى الأرض، والقنابل تنزل، والرصاص يفرقع، لا يفضل من ملجأ أمامك إلّا الدعاء، لعلّ دموعي الحارّة كانت تمتزج بالتراب وأنا أتوسّل إلى الله أن ينقذني من هذا الهلاك، ويخرجني من هذا الجحيم.

فجأة، بدأت مدفعيّتنا تصوّب القذائف بجنون، لعله كان الحلّ الوحيد المتبقّي أمامهم، وإلّا سنهلك نحن المشاة جميعًا. كان وابلًا من نار ينزل على الخطوط التي يأتي منها رصاص وقنابل العدوّ. بعد دقائق قليلة، بدأ الفيت مين يغادرون ساحة المعركة، متراجعين في اتجاه النهر والقرية، والتي كان قبل لحظات، وبطوننا إلى الأرض، تنفلت من بين أيادينا صوب الأفق البعيد.

أصدر النقيب لوبورجوا قراره من الخلف، فحملت نسائم لافحة صداه إلى آذاننا: "لا تراجع الآن! يجب أن نكمل ما بدأناه. وهذه هي فرصتنا لإتمامه!". استنهضنا أجسادنا من فوق التراب المندّى،

وقفنا على أقدامنا، وتقدّمنا بحذر شديد في أثرهم، بينما انتشر المسعفون داخل الخنادق لإنقاذ المصابين.

بعد عشرات الأمتار من المشي، وجدتني وإبراهيم والكابران حمّو وثلاثة جنود آخرين في المقدّمة، وقد انتشر الآخرون خلفنا عن اليمين والشمال لتمشيط جميع الجهات. كنّا قد بلغنا أرضا مائية، حقل أرز داخل بركة، تجاوزني فجأة اعزيز يحثّ خطاه، تصلني ضحكته وهو يقول: "هيّا تقدّموا، إنكم تمشون كالديدان!"، فرفع بعض الجنود رتمهم في لحاق به. مضينا خلفهم على روية وفي حذر شديد، وقد صار الماء، لمّا بلغنا وسط الحقل يدنو من الركب، فأضحت حركتنا أشدّ صعوبة وبطئًا. ولمّا لاح لنا الخروج من البركة قريبا، انطلق الصوت الذي نخشى سماعه، طلقات رصاص متقطّعة تجيء من الأمام، من أين انبعث هؤلاء؟ صاروا يقفون الآن أمامنا، على بعد بضع عشرات من الأمتار، صدورهم العارية ملطّخة بالوحل والرماد، وبنادقهم تفتح في وجوهنا وابلا من الرصاص.

تهاوَى على مرأى عيوننا، الجنود المتقدّمون الواحد تلو الآخر. سقطوا كجذوع شجر في الماء، رأيت الدم يقفز فائرا من صدر اعزيز، سمعت صرخته ثم رأيته يهوي إلى الخلف، كان رقيب يصرخ خلف أذني أن ننبطح فورًا في الماء، لكنّي لم أنبطح، بدا صوته قادمًا من زمن آخر. من حلم قديم. كنت أحسّ بشعر رأسي يقف شوكًا داخل خوذتي، والبندقية الرشاشة ترتعش بين أناملي. لم يكن ارتجاف يديّ هذا خوفًا، تمالكت زمام نفسي، لامست الزناد بإصبعي، ثمّ حرّرت أنفاسي عاصفة من الرصاص، ثمّ انبرى إبراهيم وحمّو

وآخران إلى جواري للحذو مثلي، بل حتّى الذين كانوا قد استجابوا لنداء ضابط الصفّ بالانبطاح، انبعثوا من تحت الماء يلبّون نداء الهجوم الذي بدأت.

أصبنا عددًا منهم، بينما لاذ الآخرون بالارتماء داخل الخنادق، بدا واضحًا أنّهم استعدوا جيّدًا للمعركة. استمرارنا في التقدم سيجعلنا صيدًا سهلًا لبنادقهم. لكنّنا لم ننبطح أرضًا، بل استبسلنا واقتربنا أكثر من خنادقهم، ثمّ سارعنا إلى رميهم بالقنابل اليدوية. ارتفع التراب والدخان وصرخات استغاثة، ثمّ ما لبثوا أن رفعوا بنادقهم فوق سطح الأرض إشارة استسلام.

## (أنام... وماذا بعد؟)

تـمّ نقلـي إلـى أراضـي أنـام ضمـن كتيبـة أخـرى، كان ذلـك مباشرة بعد المعركة الطاحنة على مشارف سات باغود، كم كان عدد قتلانا في معارك العمليّة الأخيرة؟ من منهم كانت تربطني به صداقة أو على الأقلّ أعرفه عن قرب؟ حين سننصب خيام معسكرنا مساءً لن ينصب هؤلاء خيامهم، من منهم كان ينصب خيمته إلى جواري أو يجلس ضمن نفس جلسة موقد النار حيث أكون؟

حسنًا، الحرب سريعًا ما تلفظ قتلاها وتزيح جرحاها... وتيرتها سريعة التغيّر، لا تمنحك أنفاسا كافية لتعدّ خسائرك ولا حتّى غنائمك. ما يكاد الدمع يتشكّل في مقلتيك حتّى تمسحه وتواصل التقدّم. في الحرب يتعلّم الرجال أشدّ الدروس وأعمقها، في الحرب تتجلّى طينة الرجال، خصالهم: الشجاعة، التضحية، الإيثار، الصبر، الإرادة، التأنّي... ومساوئهم: حبّ الذات، الجبن، التخلي، التهوّر... وأشياء أخرى يصعب التعبير عنها أو شرحها. ثمّ أنت ترى ما لا يخطر ببالك. وتعيش كلّ يوم بيومه. كلّ يوم يكون مختلفًا عن الذي قبله، وحتما عن الذي بعده. إن لم يكن كذلك، فأنت لا تعيش حربًا.

حسنًا، أنت حين تسمع خبرًا أو تقرأه، عن عدد قتلى وجرحى معركة، يبدو لك ذلك رقمًا، حتّى القادة الكبار يعتبرونه رقمًا، ربما يهمّهم كم كسبوا من الأرض أو خسروا أكثر بكثير من الكمّ المتعلّق بالجنود. لكنّي سأخبرك، أن العدد "1"، بالنسبة لنا نحن الجنود يعني واحدًا منّا، روحًا من بيننا، لا أحد يتأثر بوقع تلك الأرقام كما يحدث

معنا نحن الجنود، لكنّنا لا نعدّ الأرقام، بل نتلو الأسماء، فلان قتل، فلان أصيب، فلان أسر... أقرب هؤلاء إلى مجموعتنا كان اعزيز، لكنّ اعزيز كان محظوظًا، لأنّ الرصاصة أصابت كتفه، وحين تمّ نقلي إلى أنام، تمّ نقله هو إلى فرنسا ومنه إلى المغرب. ربما انتهت الحرب عنده، جنديّ آخر كنت أعرفه جيّدًا قتل، وآخران أعرفهما قتلا أيضا، والباقون من ضمن أرقام عمليّة لوبيرو بمراحلها الثلاث، كثر. وأعرفهم، وإن كان عن بعد، واحدًا واحدًا، لكنّي لا أتذكّر الآن أسماءهم، ربما إن سألتني بعد ذلك بأسابيع، وأنا في حفرة الحراسة في أنام، كنت لأخبرك بأسمائهم، وحكاياتهم أيضا. فكما أخبرتك سابقًا، خلف كلّ جنديّ منّا كانت حكاية، أرأيت؟ فكل رقم ١، قبل أن يكون جنديًا، فهو يمثّل إنسانًا... يعني حياة.

في أنام كانت مناوشات كثيرة ومعارك خفيفة، ومناوبات حراسة مسترسلة. لكن، بعد بضعة أشهر كنت أصعد سلالم باستور في رحلة العودة إلى المغرب، أحمل حقيبة أغراضي، وصندوقًا خشبيًّا أخضر، يضمّ وثائقي العسكرية، وثلاث ميداليات: الأولى، كانت عن مهارتي في الرمي، والثانية لإنقاذ جنديّ كان يقوده جنود العدوّ للأسر، والثالثة عن الشجاعة والإقدام اللذين أبنت عنهما في معركة سات باغود. لم أكن لأفخر بالتوشيحات في ذلك الوقت، ولم تزل وجوه رفاقي الذين قتلوا أو أصيبوا عالقة أمام بصري، وما زالت صرخة اعزيز، وصرخات آخرين تمزّق أوتار سمعي.

أبحرت عبر باستور وحيدًا، دون الآخرين، لا أعلم عنهم شيئًا، هل ما زالوا ضمن كتيبتنا الأولى، أم نقلوا إلى كتائب أخرى،

ومناطق أخرى؟ هل ما زالوا يواجهون رعب الرصاص والأسر، أم يحظون الآن بلحظات سلام كما حالي الآن على شرفة باستور، أنظر إلى أمواج المحيط الأزرق العاتية، تلطم بعضها بعضًا؟

مكثت لفترة بمكناس، كانت البلاد تشهد انتفاضة عظيمة، إثر نفي الفرنسيين للسلطان. شهدت بمكناس عبور موكب ابن عرفة، الذي وضعته فرنسا سلطانًا بديلًا. كنت ضمن الجنود الذين اصطفّوا لأداء التحية. سألت نفسي: "ما الذي أفعله أنا هنا؟ في أي صفّ أقف هنا؟ ...؟" أفكار قاتمة ملأت رأسي، تذكّرت المعارك في فيتنام، وعدت لأفتح قوس الأسئلة: "ما الذي تفعله فرنسا هناك؟ بل ما الذي نفعله نحن؟".

نزلت عليّ غمّة ثقيلة خلال أيّامي تلك بمكناس. كان الجوّ خانقًا، ووجوه الناس قد تداخلت ملامحها، واسودّت سحناتها، وغرقت أصواتها. كان الجميع قلقًا على السلطان، وعلى مصير البلاد.

عندما أنهيت فترة الإجازة، قصدت القيادة، وقدّمت طلبًا إلى الضابط المشرف قصد التطوع للخدمة في ألمانيا. ضحك دافعًا ظهره على مسند الكرسي:

- "يا بنيّ لقد عدت بالكاد من الهند الصينية، ثمّ أنت ما تزال صغيرا على تحمّل المزيد من المشاقّ."

- "مون شيف، لا أريد البقاء هنا بمكناس، أنا مصرّ على عدم البقاء هنا مون شيف، أريد الذهاب إلى ألمانيا. وإن لم يكن، فالرجوع إلى الهند الصينية، على حسب ما تختارونه لي مون شيف."

اعتدل في جلسته، ثم سحب ورقة وقلم، سألني بحزم:

- "سيتوجّب عليك التوقيع على عقد أربع سنوات جديدة؟"
- "نعم مون شيف!". ثمّ وقّعت على العقد.

(عقد جديد)

ببتلاخ، على الحدود بين فرنسا وألمانيا وسويسرا، لم تكن هناك حرب، حكوا أنّها كانت، لكنّها لم تعد الآن، أكّدوا أنّ نارها كانت دائمة الاشتعال بين الألمان والفرنسيين، يتنازعون السيادة على الإقليم، لكنّ تلك النار همدت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

بعد أن نقلتني الطائرة العسكرية الضخمة من مكناس إلى باريس، قضيت يومين بالثكنة هناك. ثمّ ركبت القطار في اتجاه الألزاس. كانت رحلة طويلة اخترقت فرنسا. استمتعت خلالها بالنظر عبر الزجاج السميك إلى الحقول والمدن والبلدات الكثيرة، وأدركت كم أنّ الفرق شاسع بين أوروبا وباقي البقاع، فكلّ شيء يبدو هنا من نافذة القطار نقيّا ومرتّبًا، البنيان والعربات والناس وحتّى الأبقار التي ترعى بتكاسل في السهول.

لمّا بلغ القطار محطة ستراسبورغ، تناولت معطفي الشتوي الطويل، متاعي ونزلت. رأيت من بين النازلين جنودا فرنسيّين، كانوا كحالي ببذلهم العسكرية وقبّعاتهم ومعاطفهم الشتوية وحقائبهم. شعرت ببعض الانتماء إلى المكان لمّا رأيت فيه عساكر، كان عليّ الانتظار لساعتين تقريبا إلى أن يجيء القطار الآخر الذي سيوصلني إلى وجهتي، هكذا أخبروني بالثكنة بضواحي باريس، ودوّنوه لي على شكل كلمات ورسومات تخطيطية وأرقام على ورقة. قصدت الكراسي المسقوفة عند رصيف المحطة، انتبهت إلى أن أولئك الجنود قد

سبقوني إلى الجلوس. ورغم الإحساس بالألفة تجاههم، تعمّدت الابتعاد ما استطعت. فأخذت مكانًا عند آخر صفّ الكراسي.

ربّعت يديّ ورحت أستمتع بالنظر إلى البنايات المنتصبة قبالتي. بدت بتصاميمها الهندسية كنقوش على أواني نحاسيّة، برع "معلّم" فنان في صقل أبعادها وتدقيق نقوشها، ثمّ رأيت مسافرين يقتربان من سقيفة الكراسي، شيخ بمعطف رماديّ طويل، يضع على رأسه قبّعة قطنية سوداء، وعلى عينيه نظارات سوداء، ويتّكئ في مشيته على عكّاز مصقول إلى درجة اللمعان، رفقته عجوز تقاربه في العمر، ترتدي معطفًا لونه بنّيّ فاتح بأصداف كبيرة، وتضع على شعرها وشاحًا أزرق، وتحمل في يدها حقيبة سفر جلدية صغيرة. قصدا كرسيّين إلى جواري وجلسا، لم يلبثا كثيرًا حتى راحا يتحدّثان، ولأنّ المكان كان تحت سطوة هدوء لذيذ، حتّى لتظنّ أنّ لا قطارات تمرّ من هنا، فقد بلغني صوتاهما بوضوح شديد، لم أفقه منه شيئًا. فهو لم يكن بالفرنسية حتّى، بل أعتقد أنّهما كانا يتكلّمان بالألمانية. ولمّا دقّقت في ملامحهما الصارمة والموحية بالجديّة، قلت إنّهما ألمانيان. ثمّ، فكّرت، لربّما أنا الآن في ألمانيا، فحتّى اسم المدينة الصعب على النطق، يوحي بذلك. وتذكّرت أنّ هذا ما طمحت إليه، أن أشتغل بألمانيا. فرأسي امتلأ في السنوات الأخيرة بالقصص عنها، الجيش العظيم الذي غزا أوروبا وأفزع العالم، فتحالفت أوروبا، شرقًا وغربًا، وأمريكا وغيرهما لإيقافه. ألمانيا تمتلك حتمًا، أشياء خارقة لتحقّق كل لذلك.

- "لو سمحت؟"

عندما التفت صاعدًا من بئر شرودي، وجدت جنديًا فرنسيًا واقفًا عن يساري، ثمّ أضاف شيئا بفرنسية سريعة لم أفهمه، ولمّا انتبه لذلك، أعاده على مهل وهو يقطّع الكلمات، لكنّي رغم ذلك لم أستوعب، ثمّ قال كلمة واحدة: "وجهة!". تلك فهمتها، فأجبت: "ألمانيا!". ولمّا ظلّ ساهما، استدركت: "بتلاخ!". ابتسم: "حسنا!"، "انضم إلينا!"، قال ذلك مشيرًا إلى مكان جلوس رفقائه.

كانت وجهتهم سان لويس، وهي محطّتي الموالية أيضا، وأخبروني أنّهم يعملون ضمن الوحدات المائية. كان لديهم كعك فرنسي، فناولوني بعضا منه، وسألوني عن اسمي وعن المكان الذي جئت منه، ولمّا علموا أنّي مغربي خضت معارك لأكثر من سنة بالهند الصينية، تفاجؤوا، وأعجبهم الأمر، فراحوا يطرحون المزيد من الأسئلة، فهمت بعضًا من أسئلتهم، لكنّي وجدت صعوبة في الحكي والوصف بالفرنسية، فاستعنت باستخدام يديّ وإقحام كلمات بالعربية، وأظنّ أنّهم كانوا يفهمون، إذ كانت عيونهم تتمدّد دهشة، يهزّون رؤوسهم باستمرار وأحيانًا يبتسمون.

جاء القطار، وصعدت هذه المرة رفقتهم، جلست قريبا من النافذة كما أحبّ أن أفعل دومًا. وكانت ثمة بهجة تدغدغ صدري، وابتسامة عنيدة، تتمدّد على وجهي، بينما القطار يندفع على مهل مغادرًا محطّة ستراسبورغ.

ودّعت الجنود الفرنسيين لمّا نزلنا بمحطّة سان لويس، ثمّ استقللت الحافلة المتوجّهة إلى بتلاخ.

* * * * *

ببتلاخ، لا حرب، لا معارك إذن ولا مطاردات، لكن ثمّة أشغال شاقّة، والمزيد من التدريبات. بثكنة بتلاخ الصغيرة، والتي كان جليًّا أنّها بنيت قديمًا، ربما لغرض آخر، وجدت خليطًا من الأعراق، جنود فرنسيون وألمان وأوروبيّون من بلدان أخرى ومغاربة... حتّى أنّ ضابطًا في القيادة هناك كان مغربيًا. (هذا الرجل، سأراه بعد زمن جدّ طويل على التلفاز وأسمع اسمه: بِنْدْريس"، يتردّد عليه وعلى المذياع، سأراه وقد أضحى لواء يتقدّم للسلام على الملك الحسن الثاني.)

بتلك البلدة بالألزاس، كان البرد قارسا، لا سيما حين حلّ الشتاء. لم يسبق لي وأن شهدت بردًا في مثل شدّته، حتّى وأنا في عزّ عراء وجوع بوعيّاد أيّام الصقيع، وكان الثلج يتساقط أحيانًا. كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها القطن النقيّ الناعم ينزل من السماء، والأرض تصير زربية نسجت من خيوط جبن بلديّ صنع من حليب الماعز. لذلك، لم تكن النار تغيب عن مدافئ الثكنة، وكنّا نضطرّ إلى إضرام النار كلّما تحتّم علينا التواجد خارج جدران أبنيتها الداخلية. نجلس حول مواقد النار، بمعاطفنا الطويلة زيتية اللون، نحتسي قهوة أو شايًا، ندفع بجرعاتها الساخنة صوب بطوننا المرتجفة، حتّى إذا تشبّعت أجسادنا دفئًا، أشعلنا السجائر ورحنا ننشر عبر الفضاء البارد سحب الدخان والطرائف، فتنطلق ضحكاتنا تهزّ سكينة الألزاس بمرح عذب وصادق.

وقد حدث لي ذات ليلة، بينما كنت بنوبة حراسة انفرادية خارج الثكنة، وقد أوقدت النار وجلست عندها ألتحف بطانية عسكرية، والوقت يزحف على مهل عبر الليل البارد الطويل، ذي

السماء الصافية لامعة النجوم، أن بدأت جفوني تتمايل كأغصان شجرة داعبها نسيم لطيف، ثمّ بدا وكأنّها تتبع إيقاع ألسنة النار التي تتراقص كسنابل شعير ذهبية. شعرت بدفء لذيذ يعبر بدني ويدغدغ وجهي وأسفل أذنيّ. وبدأت أرى لهيب الجمر بحفرة شواء، فوقه يدور على مهل جدي يخترقه سفود كبير مصقول من شجر العرعر. أستفيق من إغفاءتي، أُخرج من تحت البطانية يدي الممسكة بكأس الشاي، والذي ما زال محافظًا على بعض دفئه، أرشف منه، ثم أعود للنظر إلى الجدي المعلّق، أنتظر باستمتاع نضج لحمه وشحمه.

ظلت كذلك، يلتهم النعاس جفوني، ويغمسني في بئر أحلام هادئة لذيذة، إلى أن بلغت أنفي رائحة. فتحت عينيّ عن آخرهما. تصوّرت في البداية أنّها رائحة لحم الجدي الذي يشوى، لكن، وبينما ذهني يوشك أن يستعيد كامل يقظته أدركت أنّها رائحة شيء آخر، رائحة خشب يحترق. عندها، اكتشفت أنّ ظهري صار مستندًا إلى حقيبة الأغراض، وسحابة دخان داكن تنبعث من الموقد وتعبر فوق وجهي. اعتدلت في جلستي سريعًا أحاول استبانة الشيء الذي أثار هذا الدخان الكثيف وسط النار. لكنّي سرعان ما انتبهت إلى أنّ بندقيّتي الرشاشة التي كانت موضوعة على حجري قد اختفت. هممت أن أندفع في بحث مجنون عنها، لكنّي تناولت عن الأرض عودًا ورحت أدفع ما فضل منها خارج النار.

"حادث عمل!". هكذا سجّل الملازم الفرنسي، الآمر عليّ، تقريره حول حادث احتراق بندقيّتي الرشاشة، أثناء نوبة الحراسة الليلية، والتي لم تسلم منها غير أجزائها الحديدية.

## (انتقال جديد)

عندما حلّ الصيف، بعد ربيع ماطر وقارس، فكّرت أنّي لن أقدر على تحمّل شتاء آخر هنا ببتلاخ، فقصدت مباشرة ذات صباح مشمس ودافئ مكتب الضابط المغربي "بندريس"، وأخبرته برغبتي في عدم الاستمرار وسط هذا الصقيع اللعين، لم يتفاجأ بالأمر، قال: "حسنا، سنعيدك إلى مكناس." أجبته: "لا أريد الرجوع إلى مكناس...". ثم استطردت: "إلى المغرب ككلّ...". استمرّ يتكلّم في هدوء تام، وقد شابك أصابع يديه على سطح مكتبه: "إلى أين تريد الذهاب؟ لم تعد أمامك خيارات كثيرة، إلّا إذا أردت الرجوع إلى الهند الصينية؟". وأنا ما أزال منتصبا أمام مكتبه، حرّكت عينيّ يمينًا وشمالًا: "نعم مون شيف، الهند الصينية. كما تريدون مون شاف.". في الحقيقة هذا ما كنت أريده أنا. "حسنًا يا جنديّ. سأرسلك إلى تازة. ثمّة معسكر تدريب هناك لفوج سيتمّ إلحاقه عمّا قريب بكتائب الهند الصينية. أعتقد أنّك محظوظ بهذا." قال ذلك وابتسم.

نُفّذ قرار الانتقال سريعًا. ولم أشعر إزاءه بذرّة ندم، أمضيت شهرين بمعسكر تازة، تخلّصت من ثلّاجة الألزاس، لكنّي كنت أمام تدريبات أشدّ صرامة، الركض في الغابات، المزيد من الأشغال، والكثير من تدريبات السلاح، لكن خبرتي أسعفتني على تجاوز كلّ ذلك، ثمّ جاء يوم نقلنا كما تجري العادة إلى أراضي الهند الصينية.

رحلة قطار إلى وهران، ثمّ رحلة السفينة إلى مارسيليا، ثمّ السفر عبر البحرين، الأبيض والأحمر، فالمحيط، ومنه إلى

ميناء سايغون. ثمّ رحلة بريّة طويلة هي الأخرى، إلى أن بلغنا ثكنة بكوشنشين، بأقصى جنوب البلاد.

كنت سعيدًا أنّي ما زلت أواصل رحلة فراري الطويل، فما أكاد أن أضع قدمًا بمكان ما بالمغرب، حتى أقفز خارجه قفزة كبيرة. كسهم تشتدّ عليه قبضة القوس لتقذفه صوب هدف بعيد. ولمّا نزلت بأرض كوشنشين، وبدأنا عمليات تمشيط غاباتها الكثيفة، استنشقت أخيرًا أنفاس الانعتاق التي تنعش العقل وتدفع القلب للتغريد، بعد الأسابيع الخانقة بمعسكر تازة.

كنّا بكوشنشين أبعد ما نكون عن معارك تونكين الضارية، بل وكأنّنا بمعسكر استكشافيّ، تتخلّله مناورات الرمي، وحملات تمشيط أدغال شديدة الاخضرار، يغرق معظمها في مياه الأنهار والمستنقعات، حتّى لأنّ الأشجار ومختلف النباتات تنبعث من وسط المياه، فترى الأرض كلّها، بترابها ومائها صفحة خضراء. وكانت تشملنا سكينة غريبة بينما نخترق الخضرة اللامتناهية بأحذيتنا المائية الطويلة، نجزّ ما يعترض طريقنا من أغصان وأعشاب بمناجلنا الطويلة المعقوفة من الأمام.

في الشهر الأول لتواجدي هناك، بينما كنّا نزحف ذات صباح داخل مياه نهر خضراء آسنة، في عملية تمشيط روتينية، استثار سمعنا صوت خشخشة بين أشجار الدغل المتقاربة حدّ التشابك بالأغصان. تجمّدت أجسادنا في مواقعها. شحذنا أسلحتنا. وجّهنا فوهاتها صوب

المكان مصدر الصوت. ثمّ ظهر لنا من بين أوراق الشجر العريضة، ذراع بشرية تتحرّك، أشار إلينا قائد المجموعة بالتريث، ثمّ انفلجت الأوراق الخضراء عن جسد بشري شبه عار، لرجل من سكان الغابة الأصليّين.

بعدها، سنتصادف كثيرًا مع هؤلاء. قوم يعيشون في أدغال كوشنشين، عراة الأجساد، حفاة الأقدام، إلّا من خرقة تتدلى على عوراتهم، رجالا ونساء على حدّ سواء، شعورهم منسدلة، وكروشهم مدلّاة. عندما يحلّ المساء، أو وقت الظهيرة، يقوم الواحد منهم بنصب شبكة بين شجرتين، ثمّ يستلقي فيها لينام. كأنّهم أولئك الذين يتحدّث عنهم الأجداد وتحكي عنهم الجدات، وينعتونهم ببني عراء. أجل، صورتهم شيء يصعب زواله عن ذاكرة المرء. كأنّهم بشر غير البشر. ولولا أنّي لم أشاهدهم بأمّ عينيّ هناك، لظننت أنّ "بني عراء" همّ مجرّد شخصيات من خيال الحكايات.

بغابات كوشنشين، كنّا قلّما نصادف مجموعة من الفيتمين، وكانوا نادرًا ما يباغتون ثكنتنا الرئيسة أو معسكراتنا المتنقّلة. إلّا أنّ القادة لم يكونوا ليتوانوا عن التزام كلّ شروط الحيطة والحذر، فكانوا يفرضون علينا نوبات ذات ساعات طويلة من الحراسة الليلية...

## (نوبة حراسة)

أقف داخل الغرفة التحت أرضية، أصوّب عبر فتحة سقفها، بمستوى سطح الأرض، فوهة رشاشتي، على هدف أنتظر ظهوره، ولا أريد ظهوره، أدير اتجاه الرشاش بزاوية مائة وعشرين درجة، ذات اليمين وذات الشمال، ماسحًا باستمرار جزء من حقل الأرزّ أمامي، يمتدّ في طوله إلى ما يفوق المائة متر، الغرفة هي برج مراقبة، لكنّه برج تحت الأرض، ولا شيء يظهر منها على السطح غير أنبوب الرشاش المتحرّك كرادار رصد.

أحرّك يديّ وجذعي بتلقائية مع حركة الدوران هذه، وأحرّك بين الفينة والأخرى قدميّ أيضا، بشكل متعمّد، حتّى لا ينال منهما البرد والرطوبة هنا أسفل، فأنا سأظلّ واقفا هنا تحت هذا الحقل الغارق في الماء مدّة ساعتين، فإذا تغاضيت عن تحريك رجليّ، فهما قد تتخدران أو تتخشّبان، وهذا لن يكون في صالحي إذا ما تعرّضنا لهجوم سريع مباغت.

لقد تعوّدت على القيام بهذه الحركة، تحريك قدميّ باستمرار وكأنّي أركض ببطء في مكاني، عندما كنت في هايديو أو أنام، أثناء الفترة الأولى هنا بالهند الصينية، كان الفيت مين يباغتوننا بليل، ويكتسحون معسكراتنا، يقتلون ويخطفون ويضرمون النيران، ثمّ يختفون كالذئاب في جنح الظلام. كانوا يخوضون حرب عصابات ضدنا. وكانوا جدّ بارعين في ذلك. ونحن، كنّا نحاول أن نحذو حذوهم، وكثيرًا ما نخفق. الأمر مختلف هنا، في كوشانشين. قلّما

نطارد مجموعة منهم. وهنا لا أحد يباغتنا، لا بليل ولا بنهار. لكن، يبقى إلزاميًّا علينا النزول إلى هذه العلبة وشبيهاتها المتناثرة حول الثكنة، من أجل الحراسة.

كلّما تقدّم الليل، وتقدّم وقت وجودي وسط هذه الحفرة، أسفل مستنقع حقل الأرزّ، إلّا وزاد البرد من حدّة لسعه لأطرافي، وأذنيّ وأنفي، رغم البذلة والمعطف الطويل، رغم الحذاء الثقيل والخوذة، أحسّ بإبر تَخِز رؤوس أصابع قدميّ، وساعديّ، ومفاصلي، وأجزاء كثيرة من ظهري... أووه، أتذكر أيّامي بألمانيا، فأحمد الله، وأقول: هذا أرحم، برد فيتنام مهما بلغ لن يصل إلى ضراوة برد ألمانيا، في بتلباخ، هناك في الألزاس، أمضيت ليالي في جحيم من زمهرير، البرد الذي يأكل العظام، والأشغال الشاقة الليلية، لم أتحمّل ذلك.

نوبة حراستي الليلة، بدأت مع منتصف الليل، وتنتهي عند الثانية بعده، هذا أصعب وقت للخروج في نوبة حراسة، فأنت تكون بالكاد قد قطعت نصف المسافة في مدّة نومك، ويوقظونك، تفتح عينيك سريعًا، تقف على قدميك، ثمّ تشعر بأن الأرض تلفّ من حولك، تخرج من أوج أحلامك اللذيذة، لترتدي البذلة والمعطف، وتنتعل الحذاء وتضع الخوذة الثقيلة الباردة على رأسك، ثمّ تنزل إلى قاع الحفرة، تمسك بالرشاش وتنظر عبر الفتحة الطويلة صوب الفضاء الشبه مظلم، بينما لا زالت صور من أحلامك التي غادرتها بالكاد، تتردّد أمام عينيك الناعستين. لكن، يجب أن تستيقظ، لا يجب أن تنام، ولا أن تغفو حتّى، أنت المسؤول عن حيّز مراقبتك.

ومنه، فأنت مسؤول عن سلامة الآخرين النائمين داخل الثكنة. هما ساعتان فقط. يجعلهما الاستمرار في الوقوف والمراقبة تتمددان، أي نعم، لكنّهما ستمرّان على أيّ حال، وبعدها تعود لإكمال نومتك وأحلامك، هل سبق وأن فعلتها؟ أن غفوت في الحراسة؟ لا أذكر. هنا، لا أذكر. لكن في تونكين، أنا متيقّن أنّي لم أفعلها أبدا. ومتأكّد أن لا أحد من الجنود الآخرين فعلها. فهناك، على خطوط النار مع العدوّ، قد تكلّفك رمشة عين ثمنًا باهظًا، حياتك. أو على الأقلّ ضربك على رأسك بطرف بندقية، أو سحبك من ذراعيك نحو الأسر، حيث لا أحد يعود من هناك. هم فعلوه بنا أكثر من مرّة ونحن يِقَاظٌ فكيف يكون الحال ونحن نيام؟

* * * * *

هل بدأت أحسّ بالدفء؟ أم أنّ البرد صار ضيفًا اعتياديًا مع مرور مزيد من الوقت؟ هل مرّت الساعة الأولى؟ هل صرت أشعر بالضجر؟ أم ماذا؟

في تونكين أو أنام، نحرس ونحن نتوقّع بشكل متحفّز، كلّ ليلة، ظهور ظلّ أو حركة، سماع همس أو طقطقة شيء داسته قدم. لكن هنا، نقوم بالمسح الرتيب طوال الوقت ونحن ندرك تمامًا أن لا شيء سيحدث. أليس هذا أمرًا مضجرًا؟ مثبّطًا للهمم؟ شيئًا مزعجًا؟ خانقًا؟ يدفع بالمرء إلى حافّة الانهيار؟ لعلّ هذا يوافق تمامًا ما حكاه لنا توماس فينزر، الجندي الألماني الذي كان رفقتي في أنام، عن

الانهيار الذي يلحق بالقناصة في الحروب، عندما يظلّون لساعات، وربما أيام، يترصّدون من مكان ضيّق ومعتم وخانق، ظهور الهدف، فينفد صبر انتظارهم دون حدوث ذلك، عندما تحدّث عن الأمر، لم أفهم جيّدًا ما يقصد، هو كان يتكلّم بفرنسية ركيكة، أنا فهمت الكلام، لكنّي لم أفهم المعنى.

الآن، أنا أعي جيّدًا ما قصده فينزر، الجندي السابق في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، والذي تمّت إعادة تجنيده، كما آخرين كُثُر أمثاله، ضمن الجيش الفرنسي الجديد. وكما يقول بعض الجنود المقرّبين منه، فهو لم يتحدّث يومًا عن ظروف انضمامه إلى الجيش الفرنسي. هل تمّ أسره عقب إنزال النورماندي؟ أم استسلم بعد تحرير فرنسا؟ أم أنّه التحق طواعية به بعد ذلك؟ أم أنّه وقع في أسر الحلفاء، في مكان آخر غير فرنسا، وتمّ ترحيله إليها قصد تعزيز جيوشها متعدّدة الجبهات؟ وهؤلاء يقولون أيضًا، إنّه حسب طبيعة حكاياته عن الحرب، فهو على الأرجح كان قنّاصًا في الجيش الألماني، رغم أنّه يتجنّب باستمرار الإقرار بصحّة ذلك.

فينزر، القناص السابق بالجيش الألماني، حكى لنا ذات مساء، وبعضنا يتهيّأ للخروج في نوبات حراسة، أنّه سمع عن قنّاص ألماني، كانت قد أوكلت له عمليّة تصفية ضابط روسي أثناء اجتياح الألمان لستالينغراد. كانت المعلومات التي بحوزة هذا القنّاص، تؤكّد أنّ الضابط السوفياتي لم يغادر بعد مكتبه، الواقع ببناية عسكرية في حيّ كان قد تعرّض للقصف الجويّ الكثيف، لكنّ القوات البرية الألمانية كانت لم تتمكّن من اجتياحه بعد، وأنّه حتما سيقوم بمغادرته في أقرب وقت مخافة وصول الجنود الألمان إلى المكان.

تسلّل القناص مستغلًّا حالة الذعر والفوضى التي حلّت بالجميع، حتّى بلغ بناية مقصوفة مهجورة مقابلة للبناية حيث مكتب الضابط، ثمّ توارى في إحدى غرف طابقها الثاني عن الأنظار. جهّز بندقيّته، واتخّذ من إحدى فتحات الجدار المهدّم نافذة يرصد عبرها حركة الهدف المرتقبة، وسكن كجلمود صخر في مكانه ينتظر إطلالة الضابط عبر الباب.

ثمّ بدأ الوقت يعبر زحفًا، وحين شعر القناص الألماني بذلك راح يعدّ، بالدقائق أوّلًا، ثمّ بالساعات ثانيًا، تصوّر! أن تعدّ مرور الوقت عليك في مكان، لا تتململ فيه أو تتكلّم ولا حتّى بإمكانك مدّ بصرك أبعد من قطعة مكان محدّدة، بالساعات؟ أجل، هكذا أخبرنا فينزر، والذي يدّعي البعض الآخر أنّه كان في رتبة ضابط، لكنّه عرف كيف يواري حقيقته عن المحقّقين الحلفاء. أخبرنا أنّ ذلك القناص راح يعدّ بالساعات وهو هامد في مكانه كخشبة، الحركة الوحيدة التي كان يستطيع القيام بها، هي مسح أنفه المستمرّ في السيلان؛ لشدّة البرد هناك؛ فقد كان الثلج يواصل تراكمه على كلّ طرقات وأرصفة وسطوح بيوت ستالينغراد.

ثمّ حلّ المساء، فبدأ القناص الألماني يرتعش في مكانه، ثّم بدأت أسنانه تصطكّ، وراح رأسه، بل كلّ جسده يهتزّ، ثمّ انتبه إلى أنّ إصبعه السبّابة المثنيّة على الزناد قد صارت قطعة جليد. حاول أن يمدّها فلم يستطع، فاجتاحه قلق عنيف، ماذا إن ظهر الهدف الآن فجأة تحت الضوء الخافت القادم من مكان بعيد، وأراد هو الضغط على الزناد ولم يقدر؟ كان يرتدي قفّازين جلديين، لكنّ إصبعه كان

قد تجمّد. لم يكن أمامه متسّع من الوقت لمواصلة التفكير فيما عليه فعله، سحب يده من البندقية ثمّ راح يحرّكها بقوّة، من الكتف ثمّ المرفق ثمّ الكوع ثمّ مفاصل الأصابع، دافعا بالدم للتدفّق عبر شرايين يده كلّها، كانت حركة مجدية، إذ عادت الحياة إلى سبّابته، لكن الدم عبر عروق جسده كان هو الآخر يسير نحو التجمّد، فراح يحرّك كلّ أطراف جسده، أجل قام بذلك وهو مستلق على بطنه، وعينه كالصقر لا تحيد عن باب البناية المقابلة.

كم مرّ عليه من الوقت وهو في تلك الوضعيّة؟ ستّ ساعات؟ نصف يوم؟ أقلّ؟ أكثر؟ فهو لم يعد باستطاعته التحقّق من الوقت كما كان يفعل في الأولّ، لأنّه لم يعد قادرًا الآن على الحركة للنظر في ساعته على المعصم؛ لأنّ جسده كان قد التصق بأرضية الغرفة، وثمّة ثلاثة أمور فقط كان باستطاعته القيام بها: التنفس، والنظر، والتفكير. أجل، فقد كان لايزال بمقدوره التفكير أيضًا. لذلك فكّر أنّ مدّة تواجده هنا قد تجاوزت الاثنتي عشرة ساعة بكثير. فالظاهر له أنّ الوقت الآن هو منتصف الليل؟ الواحدة؟ الثانية؟ فهو لم يعد يسمع صوتًا بالمدينة كلّها، ولا يلحظ أيّ حركة. حتىّ بعض الجنود السوفيات الذين كان قد لمحهم عند ناصية الشارع المقابلة يتحلّقون حول نار أوقدوها تحت سقيفة مبنى، قد غادروا المكان منذ زمن بعيد. ولم يعد يرى الآن غير ظلال ندف ثلج تتساقط، ولا يسمع غير صفير رياح تتسلّل أسفل خوذته، قد صمّ أذنيه تمامًا. لكن كان ما يزال باستطاعته التفكير، لذلك فكّر في راهن حالته. جسده صار قطعة حديد. وهو مستلق هنا منذ الصباح. لا طعام، لا ماء، ولا نار.

ولا حتّى غطاء. لا نوم ولا استراحة. الثلج يواصل النزول. والضابط لم يظهر بعد. ولا نورًا اشتعل بالبناية العسكرية المقابلة، وهو لا تحقّ له مغادرة المكان إلّا بعد تنفيذ المهمة أو أن يجيء أحدهم يخبره أنّها قد ألغيت، لأنّ الضابط ليس في الأصل موجودًا هناك، أو ربما غادر قبيل مجيئه هو، أو تسلّل من مكان آخر غير ذلك الباب الحديدي الأسود، أو أنّه ربما قد غادر عبره دون أن ينتبه هو لذلك؟ لا! فعيناه لم تحيدا عن المكان قيد أنملة. أجل، قد حامتا قليلًا في الأرجاء، إذ كيف رأى هؤلاء الجنود حول النار؟ لكنّ مغادرة الضابط للمكان لن تكون أسرع أبدًا من نظرات عينيه الخاطفة وهو يستطلع المكان. فهو قنّاص أوّلا بالفطرة، كالذئب تمامًا، أتراه قد شرد ذات وهلة؟ لا، مع كلّ هذا التركيز الذي شحن به عقله؟ طبعًا لا، وهو يضع إصبعه على الزناد ويترقّب، أم أنّ الضابط نائم بالداخل مثلًا؟

عندما أوقف تسلسل أسئلته هذه دون أن يعثر لها على جواب يريحه، شعر بتعب شديد قد نال من عينيه، وانتبه أنّهما قد بدأتا بالدمعان منذ وقت طويل. فكّر أن يمسحهما كما فعل مع أنفه من قبل، لكنّه وجد يده لا تستجيب. فكّر أن يعصرهما. يغمضهما بقوّة لمدّة قصيرة، ثم يفتحهما، لعلّهما بهذه الحركة ترتاحان وتستعيدان حدّتهما. لكنّه خشي إن فعل ذلك أن ينام، أن يغفو، أو أن يتمادى في إغماضهما فيغادر الهدف المكان دون أن يفطن له. لكن الدموع كانت قد تجمّعت بحدقتيه، فصار صعبًا عليه الرؤية من خلالها، وهو الذي لا يرى الوجود الساكن إلّا عبر ضوء خافت متدفّق من مصباح بعيد، لا خيار أمامه في هذه الحالة إلّا أن يعصرهما بين جفنيه. دون تردّد

فعل ذلك بسرعة وخفّة، كأنّه رمش فقط، فكانت النتيجة أن ازداد وضوح الرؤية سوء، وقد علقت قطرات من الدموع برموشه وانتشرت عبر مجال رؤيته. فكرّر الحركة، لكن هذه المرّة ضغط على عينيه بقوّة ولمدّة أطول، وحين فتحهما وجد نفسه يرى ظلًّا، ظلًّا أسودًا منتصبًا أمام الباب الحديدي الأسود تحت عباءة الليل النازل حالكًا على ستالينغراد. هل يفرك عينيه؟ يعصرهما مرّة أخرى؟ هل لديه وقت لفعل ذلك، بل حتى للتفكير في ذلك؟ إنّها هامة رجل سوداء، إنّه حتمًا الضابط السوفياتي الهدف، خفق قلبه بشدّة، سخن الدم وجرى مائعًا عبر شرايين بدنه وعروق رأسه الدقيقة، ضغط على الزناد، بلغ الدم الساخن عروق سبّابته المتخشبّة فاستجابت للنداء. دوّى صدى الرصاصة في أرجاء المدينة الصامتة كلّها. ثم لحق صوت صداها، أصداء رشقات رصاص أخرى من أماكن بعيدة متفرّقة، لقد صوّب على الرأس وضغط، كان الهدف يبعد عن المكان حيث هو حوالي العشرين مترًا. مسافة أقصر بكثير من أن يخطئ هدفًا ضئيلًا منها. لكنّ هامة الرجل، الظلّ الأسود، ظلّ واقفًا، منتصبًا، أطلق رصاصة ثانية، ثالثة... وابلًا من الرصاص، لكنّ الظلّ ظلَّ في مكانه، شعر بعينه تجحظان أكثر ممّا هما جاحظتان في البدء. عبّأ ببندقيّته مزيدًا من الرصاص، جلس على ركبتيه، ثمّ راح يصوّب على نوافذ البناية العسكرية كلّها. الطابق المقابل، العلويّ، والسفليّ، نوافذ بنايات أخرى بعيدة تلمع في الظلام، فراح صوت الزجاج المتكسّر يملأ أذنيه، فراح يضحك، وشعر أنّه يحمل بين يديه رشّاشًا وليس بندقيّة، ثمّ اكتشف أن الضوء في المكان ليس بالخافت كما كان يبدو

لـه فـي الأول، وأنّ الظلّ الأسـود لـم يعـد لـه وجـود، بـل لـم يكن لـه وجود أصلًا. شعر بنفسه قد تحرّرت من ضغط الانتظار القاتل الطويل، وأنّ حواسه استعادت قدرتها على تمييز الحقيقة من الوهم، ثمّ سمع جلبة تقترب، صوت جنود يركضون من بعيد نحو المكان، دون تردّد قفز من نافذة الغرفة بالطابق الثاني نحو الأرض، سقط فوق كومة ثلج، وقف سـريعًا والبندقيـة لازالـت بيـن يديـه، انسلّ عبر أقرب زقـاق، خرج منه عبـر شـارع عريض، فراح يركض عبـر رصيفه قليل الثلج وهو يضحك، إلى أن بلغ فجرًا ثكنة للقوات الألمانية التي كانت تستمرّ في حصارها للمدينة.

كنـت مـا أزال أنـا واقفًـا داخـل غرفـة الحراسـة التحـت أرضيـة، عندمـا مـرّت هـذه الحكايـة بتفاصيلهـا الدقيقـة برأسـي، ولمّـا بلغـت نهايتهـا وخرجـت من سـطوتها اكتشـفت أنّي أضحك، ثمّ سـمعت صوت طـرق عنيـف علـى سـقف الغرفة، عندمـا توقّفت عن الضحـك وأطرقت السمع، وصلني صوت رئيس فرقة الحراسة: "هيّا يا جنديّ! ماذا تفعل هنـاك؟ لقـد انتهـت نوبتـك منذ نصـف سـاعة...".

# الفصل الثالث
# زمـن الرجـوع

## (إجازات عسكريّة)

طوال حياتي، كان مقدّرًا لي أن أذهب وأعود، في كلّ مرّة أبتعد، مهما اشتدّ ابتعادي أجد الحبال تشدّني لأسلك طريق الرجوع، لكن اليوم، ومنذ سنين طويلة، لم أعد أرغب في العودة، ولم تعد أمتن حبال الشوق وألحّها قادرة على زحزحة قدميّ المغروستين في أوحال من الأسى الثقيل.

مراتع الصبّا الأولى، ألا يظلّ الحنين إليها متّقدًا في نفس الإنسان رغم ما يمضي من العمر؟ ألا يجعل استحضار ذكرياتها القلب يخفق شوقًا للرجوع إليها، لاستعادة وقتها المفقود، حين يتحرّك الزمن بالمرء بعيدًا عن زمانها ومكانها؟ أليست هي الأجمل والأطيب والأنقى؟ أليس استذكارها هو المرآة التي تعكس بعض البراءة الكامنة في نفوسنا؟ والتي تضحي مع تقدّم الزمن متضاربة المشاعر والمواقف؟ أليس الرجوع إلى تلك المراتع هو خلاص وميناء أرواحنا كلّما تقاذفتنا الأماكن وسطت علينا الأحداث، وغمرتنا الحياة بتيهها ومطبّاتها؟

لا أريد الرجوع إلى هناك، إلى دوّار بوعيّاد، إلى الحوامد، لا أرغب في زيارة مراتع الصبا والنظر عن كثب إلى ذكرياتها.

لقد كنت أفعل ذلك فيما مضى، إبّان الخدمة العسكرية، وقتها، صرت كلّما عدت إلى المغرب في إجازة إلّا وقصدت بوعيّاد. أجل، لقد عاد الابن الآبق، لكنّي لم أكن لأعود بمحض إرادتي، بل هم أهلي، اثنان منهم على وجه التحديد، لمّا علموا بأمر قضائي لإجازاتي بنزل بالرباط، جاؤوا في أثري، ذات إجازة.

كنت بغرفتي أستعدّ للخروج صباحًا، عندما طرق بابي خادم النزل، كان هذا أمرًا مألوفًا؛ إذ اعتاد أن يمدّني بصينية شاي مع رغيف أو خبز، زبدة وعسل أو زيت زيتون وبيض، وذلك لحرص صاحب النزل على إكرام جنود الجيش الفرنسي. حين فتحت الباب، لم يمدّ الخادم لي الصينية كعادته، بل مدّ عنقه الرقيق وهمس داخل الغرفة وكأنّه يلقي إليّ بسرّ حربيّ، أنّ رجلين من أهلي جاءا يسألان عنّي. بدا ما يقوله صعب الاستيعاب. والتصديق أيضا. وكأنّ سؤال: "هل لي حقًّا أهل؟" نطّ فجأة برأسي، متى كان ذلك، ومتى لم يعد كذلك؟ كيف تمكّنوا من الوصول إليّ من جديد؟ هل محكوم على هذا الحبل ألّا يترك معصمي، ألّا يمنحني فرصة الانفلات بعيدًا وإلى الأبد؟

وأنا أنزل الدرج من الطابق الأوّل خلف الخادم، منتبها جيّدًا إلى مواضع قدميّ على الدرجات، لأنّ جسدي الرجلين الواقفين ببهو النزل الصغير قد حجبا تدفّق الضوء من الخارج بكميّة كافية، انتابني هاجس مفزع، ماذا إن كان من ضمن الرجلين اللذين أتيا أبي؟ ماذا إن لفّ يده على رقبتي ثم سحبني بشدّة صوب وثاق جديد؟ ما تراني أصنع إذن؟ أقاومه؟ أردعه؟ أطرحه أرضا؟ لكن ماذا إن كان الرجل الآخر الذي رفقته هو امحمّد؟ لن تجدي مقاومتي لهما نفعًا.

ارتجّ قلبي، وتلكّأت قدماي في النزول. لكن، أيمكن أن يقتاداني إلى الدوار كما كانا يفعلان بالماضي؟ فأنا لم أعد ذلك الغرّ الجبان، لقد صرت اليوم رجلا شهد من الأهوال ما لم يشهده أبسل وأجلد رجال بو عيّاد، بل النجدة كلّها، رجل يمرّ الموت قريبا من رقبته كلّ يوم، رجل قتل، ليس مرّة، بل مرّات. ثمّ كيف يجرؤان؟ أنا اليوم

جنديّ ضمن جيش الإمبراطوريّة الفرنسيّة، جنديّ؟ ليس أيّ جنديّ، فالصندوق الأخضر يكاد يمتلئ بميداليات البطولة العسكرية، فمن إذن من زعيم كلّها أو غيرها من القبائل يجرؤ؟

عند نهاية الدرج، وبينما خادم النزل ينعطف قليلًا صوب كرسيّ طاولة الاستقبال، مفسحًا أمامي مجالًا أوسع للرؤية، اصطدمت نظراتي فورًا بعينيّ الشركي، وقد شعتا حبورًا، وملامحه قد أشرقت بابتسامة مرحّبة. جمدت في مكاني، وحمم ساخنة توشك أن تنفجر عبر مسامّي. اندفع الشركي كثور جافل صوبي، عصر جسدي الصغير بين ذراعيه وصدره، وانهال بالقبل على رأسي. ثمّ تراجع يمسح عينيه بكمّ جلبابه، نظرت صوب الرجل الآخر. لوهلة بدا لي شخصا غريبًا، بدا وجهه قاتمًا، نحتته انكماشات لم آلفها عليه. نظراته منكسرة تنبعث من عينين غائرتين. في لحظة التقابل تلك، لم أشعر بالخوف منه، لأوّل مرّة، ولا حتّى بالحقد عليه، لم أفكّر أنّي ضحيّة ظلمهم لي، ولم أشأ أن أتقمّص دور الضحية حتّى، وأدركت أنّ الحرب قد روّدت تقلّبات مشاعري.

نكس نظراته إلى الأرض لمّا تماديت في النظر في عينيه، تقدّم صوبي بخطوات طويلة مترنّحة، أمسك وجهي بين يديه العريضتين ثمّ قبّل رأسي: "على سلامتك يا بوعزّة! على سلامتك يا ولدي!".

لم أنم تلك الليلة على السرير الحديدي الذي يئزّ بغرفة الفندق، كما الحال دائما أيّام الإجازات، بل نمت بخيمة أهلي، على فراش وثير، تحت غطاء ناعم دافئ. لما شارفت قافلتنا بوعيّاد قبيل

الغروب، كان الجميع في الاستقبال، ليس أهل خيمتنا والدوّار فحسب، بل الحوامد جميعا. بلغتني من البعيد أصوات زغاريد، وهرول أطفال صوبي، وأنا بعد لم أنزل عن دابّتي، يستطلعون وجهي وهندامي الأوروبي، ويركضون مع وتيرة سير الدابة، ثمّ هبّ جميع رجال الدوار للسلام عليّ ومعانقتي، حتى امحمّد وسي المعطي راحا يربّتان على ظهري ويرحبّان بعودتي. بل إنّ زوجة أبي، لمّا اقتربتُ من خيمتنا أخذتني بين ذراعيها، مسحت على رأسي، سقتني لبنا وقالت: "على سلامتك يا ولدي."

في الغد أقام والدي وليمة، دعا لها الدوار كلّه ورجالا من الدواوير المجاورة، انتشرت مواقد الشواء حول الدوار، كانت رائحة لحم الماعز المشوي تشتمّ من خيام الدواوير الأخرى، نُصب غير بعيد عن خيام الدوار فسطاط كبير، فُرشت على أرضه زرابيّ صوفية زاهية الألوان. ألبسوني جلبابًا رماديّ اللون، من صوف فاخر، لا شكّ أن أنامل عجوز بارعة قد حبكته. ومن فوقه "سلهام" بنّيّ ثقيل. وعقدوا رأسي بعمامة صفراء حريرية، أجلسوني في أفضل ركن، وأحاطوني بمخدات "البوج" الحمراء، وسارع أكابر القوم إلى الجلوس قريبًا من المائدة التي وُضعت أمامي... كأنّي عريس في ليلة "برزته".

في تلك الفترة، كنت قد ترقّيت إلى درجة عرّيف، وكنت أتساءل وأنا جالس جلستي تلك وقد أحاط بي الناس، ذليلهم وعزيزهم، صغيرهم وكبيرهم، إن كان قد بلغ صيت بطولاتي في الهند الصينية، وما لقيته من تشريف واحترام من قيادات الجيش الفرنسي هناك وبفرنسا، آذان هؤلاء القوم هنا بدوارنا وهم يعيشون

وسط هذا الخلاء العظيم؟ لقد علموا بأمر الإجازات التي أقضيها بنزل المدينة القديمة بالرباط. لقد عرفوا أين ومتى يجدونني. إذن فليس بالبعيد أن تكون قد بلغتهم أخبار كثيرة عنّي، عبر طرق أجهلها أنا حتمًا.

قضيت ما تبقّى من أيام إجازتي تلك بأرض الحوامد. أخرج والشمس تطلّ من خلف تل بعيد، أمتطي الأدهم، المفضّل لدى والدي، أجول بين الحقول، أمضي على طرف الساقية حتّى أبلغ مخرجها من قصبة العربي بن بلال، والتي رأيتها في ذلك الوقت كامتداد لقصبتي شالة والوداية بالرباط. ولعلّها كانت كذلك! فصاحب القصبة، القائد العربي بن بلال، كما يحكون، كان قد ولّاه السلطان المولى سليمان، منصب باشا على منطقة عرب الوديان، قبل أن يضيف إلى نفوذه بشاويّة الرباط وضواحيها. ألفُّ من حول القصبة، التي كانت مركز نفوذ امتدّ من قبائل زعير ليشمل قبائل الدغمة والصباح والسهول وحتّى مدينة الرباط، قبل أن ينحدر بي الأدهم عبر الجنان بأرض والدتي، صوب الشعبة. يثب أجرافها بخفّة غزال، ثم يصعد بي صوب طريق المراعي الخصبة، فيلوح أمام عينيّ قطيع الماعز العظيم يسوقه ابنا الشركي. تذكّرت الذئب، العقاب والفرار. وفكّرت في هذا التداخل العجيب. فلولا إغارات الذئب على قطيعي، ما كنت لأكون ما أنا عليه اليوم. ألا يقولون: "رُبّ ضارّة نافعة"؟ لقد كان الذئب كذلك.

أمور تحدث لتُحدِث أمورًا أخرى. هكذا تُنسج خيوط الأقدار.

بعد تلك الإجازة، صرت مواظبًا على تخصيص الجزء الأكبر من أيّام عُطلي لزيارة الديار. أجيء محمّلًا بالهدايا الفرنسية: كعك

وشوكولا، سراويل وقمصان، وأحيانا ساعات جيب وأحذية. وقد صار بعض أهل الدوار يعلمون بمقدمي، حتّى قبل أن تبصر عيونهم القافلة الصغيرة، التي دائما ما أجدها في انتظار حافلتي عند الطريق المعبّدة، فقد كانت الريح تحمل رائحة العطر الفرنسي الذي أرشّ به معطفي، فتسبق موكبي بمئات الأمتار، متجاوزة تلال الحوامد وشعابها، تُبلّغ أهل القبيلة بمقدمي.

**سنة 1954،**

**كوشنشين، الهند الصينية،**

## (نهاية الحرب)

انتهت الحرب بالنسبة لنا في الهند الصينية، ولفرنسا أيضا، بعد الخسائر التي ألحقها بنا الفيتمين في "ديان بيان فو".

بلغني الخبر وأنا ضمن دوريّة تمشيط بكوشنشين. اختلطت الأمور عليّ. كنت أوثر المكوث في غابات كوشنشين، بين أشجارها القصيرة الكثيفة وجداولها الخضراء، وقريبا من سكّانها الأصليين العراة الذي يحيون في سكينة وسلام، على الرجوع في ذلك الوقت إلى المغرب. لكنّ الأنباء السيئة للمعارك المستعرة في أقصى شمال البلاد، بتونكين، كانت تضرب آذاننا باستمرار. أعداد القتلى، الجرحى، الأسرى... حتّى الأنانية لم تكن لتصمد أمام ضراوة الحرب. فمن يدري؟ فقد يتمّ نقلي على حين غرّة، مرّة أخرى إلى جحيم تونكين. لذلك، كانت مشاعر الجنديّ التوّاق لنهاية الحرب هي الغالبة داخلي.

هل تدرك ما يعني إعلان انتهاء الحرب بالنسبة لجنديّ مشارك فيها؟ الوصف لن يجدي نفعا للتعبير عن ذلك. لكنّي سألخّصه لك في صورة دموع تتحرّر أخيرًا، وتسيل بكلّ المشاعر المتناقضة: سرور وحزن، غضب وارتياح، قلق واطمئنان... لقد أوقعنا أسلحتنا أرضا، وقذفنا بخوذنا في السماء، صرخنا غبطة وتعانقنا.

لقد "خسرنا" الحرب. لكنّ، خسارتها، نهايتها، كانت نصرًا لنا.

الضباط الفرنسيون نال من جسارتهم وقع الهزيمة، اعترى وجوههم صمت أبيض، تقلّصت ملامحهم، انطفأ وهج عيونهم، وجفّت مياه شفاههم. لكنّنا نحن، الجنود، أوقدنا النيران ليلًا، تحلّقنا حولها، غنّينا ورقصنا أيضًا، لا رصاص بعد اليوم، ولا دويّ مدافع، لن يحترق العشب الأخضر بعد اليوم، ولن يلوث صفاء الماء البارد لون سائل أحمر ساخن. لن نسعف جرحانا ولن يُسحل أسرانا. لا ركض ولا قفز مثل التيوس، لا زحفًا على البطون مثل السحالي، ولا اختباء وسط الخنادق والحفر مثل الأرانب. لا عرقًا يبلّل الثياب، لا حرًّا يذيب الأبدان، ولا قرًّا يلسع الأطراف. لا خوف ولا حزن ولا غضب.

حتما، سيستعيد القلب إيقاع خفقانه الطبيعي.

عدت إلى المغرب لفترة وجيزة، بعدها تمّ نقلي إلى بوردو بفرنسا، وجدت بوردو شبيهة بالدار البيضاء، في تصاميم شوارعها، بناياتها، وحتّى في شعبويّة سكّانها. ببوردو التمّ الشمل بالأصحاب القدامى، بوعطية والنحيلة وإبراهيم. بعد سنتين أو تزيدان قليلًا على فراقنا، وجدتهم قد شاخوا دهورًا، لم يشاركوا في المعركة الأخيرة الحاسمة، لكنّهم شهدوا معارك أخرى ضارية، أمضوا سنة إضافية في الهند الصينية، تفرّقت بين تونكين وأنام، قبل أن يرجعوا إلى المغرب. التحقوا بمكناس في الوقت الذي كنت أفرّ فيه أنا بعيدًا عنها إلى الألزاس.

الآن، رفقتهم، ولمّا كانت الثكنة ببوردو داخل حدود المدينة، فإنّنا سنعيش زمنًا جديدًا غير أوقات الحرب العصيبة، سنسرح في شوارع بوردو وحدائقها ومقاهيها، نتناول الحلوى والجبن الفرنسيين ونكتشف دور السينما والمسارح... نتبضّع الأحذية والسراويل والقمصان الأوربية الأنيقة، نرشّ العطور الفرنسية الغالية، ونلتقط الصور. في الثكنة نجلس، كما ألفنا، نحكي عمّا شهده كلّ واحد منّا من صعاب وطرائف، نحتسي الشاي، ندخن السجائر، ليست الرخيصة هذه المرة، ونلعب لعبة "الروندا" بالورق... ولم يكون يفوتنا أن نقضي بعض أوقات إجازاتنا بمدن فرنسية أخرى، لا سيما باريس، أووه من تلك المدينة، إنّها فاكهة الحواضر، أنثى فاتنة الملامح، رقيقة الروح، تغادر بالكاد نبع ماء عذب، وقد بلّل شعرها المنسدل على كتفيها وظهرها، وحلّق النسيم العليل بثوبها الحريري ربيعي الألوان، والبسمة تشرق كالشمس على وجهها.

تلك مظاهر زمن سلم وأمان، أليست كذلك؟ وسيزداد تأكيدها، عندما حصلت البلاد على استقلالها أخيرًا سنة ١٩٥٦. كنت حينها أقضي بعض أيّام إجازتي بالرباط، كان ذلك شيئًا عجيبًا يحدث، صعبًا على الاستيعاب. لم أمنع عن نفسي حقّها في الفرح، وحتّى وأنا أرتدي زيّ جنديّ فرنسيّ، إنّه الوطن. لحظة ميلاد جديد للبلد، اندفعت عبر الحشود المبتهجة المحتفلة، تنساب كسيول جارفة عبر شوارع الرباط العريضة. هل سيعاقبني الجيش؟ إنّي في إجازة. ثمّ إنّه الوطن. ثمّ إنّ قلبي هو ما صار يتحكّم بي وليس عقلي، إنّها مشاعر عنيفة، تجعل العقل يطير، والجسد ينتفض، ذرف الناس

الدموع، وأنا كذلك فعلت، الجميع يتذوّق طعم الحرية، ثمّ يشرب منها حتى الثمالة، أنا أعرف معنى الحرية، وعيت كنهها جيّدًا، في الماضي البعيد، وأنا بعد فتى أخرق، يسعى للانعتاق من سوط أبيه وسطوة الآخرين، حين نجحت في كسر أغلالهم، أدركت معنى أن يكون المرء حرًا.

أمضينا زمنًا طويلًا ببوردو، تخلّله نقلنا إلى ليون لفترة قصيرة، ثم إرجاعنا من جديد إليها. وفي فترة متأخّرة من سنواتنا العديدة هناك، جاءت تعليمات بنقل بعض الجنود إلى الألزاس، وقع الاختيار على أربعة جنود كانوا قد التحقوا مؤخّرا بثكنة بوردو قادمين من مكان ما بفرنسا، وعليّ أنا، بحكم تواجدي سابقا بالألزاس، رغم حادث احتراق البندقية الرشاشة، ورغم طلبي الخروج من هناك، ربما لأنّ هذين الخبرين لم يتجاوزا أسوار ثكنة بتلاخ.

## (قصة حبّ بالألزاس - 1)

كانت سان لويس بالألزاس وجهتي الجديدة.

تركت رفقائي القدامى ببوردو، لأحظى برفقة جديدة، جنديّ كان رفقتي ببتلاخ وجدته هنا بسان لويس، اسمه عبد الرحمن، ينحدر من قبيلة أطلسية، كان قد التحق بالهند الصينية قبلي بسنتين، أمضى بضعة أشهر بتونكين وأخرى بأنام، ثمّ عاد إلى المغرب. ولمّا وضع قدميه ببتلاخ لم يشأ الخروج منها. رغم الفرص التي سنحت له لنقله إلى بوردو وليون، قال لي: "أنت مجنون! كيف طلبت مغادرة الألزاس بهدوئه وألفته وأمانه، للعودة إلى الهند الصينية حيث الرصاص والأسر والعيون التي لا تنام؟ " كان لسانه يتعثّر عند حديثه باللهجة المغربية العربية. أخبرني أنّه عندما التحق بالجيش لم يكن يتكلّم إلّا اللهجة الأمازيغية، كان يفهم كثيرًا ممّا يقال بالعربية. لكنّ نطقها ظلّ عصيًّا عليه، إلى أن احتكّ بالجنود المغاربة في الهند الصينية المنحدرين من قبائل ذات ألسن عربيّة، واختلاطه بالناس في الفترة الطويلة التي أمضاها بمكناس. أخبرني أنّه كان قليل الاحتكاك بالبشر قبل التحاقه بالعسكر: "لم يكن متاحًا لي مغادرة الجبل إلّا يوم السوق، هذا إن حظيت بفرصة لذلك، كنت أمضي يومي كلّه بين الجديان والصخور الجبلية الوعرة، أضع طاقيتي على رأسي، وعصاي أمدّها فوق كتفيّ خلف رقبتي، أصدح بموّال أمازيغي عبر المنحدرات الحادة والشعاب العميقة، فتردّ الفجاج المعتمة صدى صوتي...".

بثكنة سان لويس وجدت أيضا اثنين من أولئك الجنود الفرنسيين الذين قابلتهم بمحطة ستراسبورغ. هم في البدء لم يتعرّفوا عليّ، لكنّني عرفتهم، ولمّا سمعني أحدهم أحكي لعبد الرحمن وجنديّ مغربي آخر عن كوشنشين، انضمّ إلى جلستنا بالمقهى، ثمّ ما لبث أن دعا صديقا له. أخبرانا أنّهما يفهمان القليل من العربية، لخدمتهما في فترة سابقة بالمغرب والجزائر. ولمّا ذكّرتهما بلقائنا قبل سنوات بستراسبوغ، تذكّراني. وربّت الأوّل على ظهري مبتسمًا وقال عنّي شيئا لم أفهمه.

بسان لويس انضممت لكتيبة هندسيّة، وكانت جلّ مهامّها مائية. إذ كنّا نقوم بمناورات على متن سفينة عسكرية تمخر نهر الراين. وجدت في ذلك متعة بالغة، فأنت حين تلقي ببصرك من على سطح السفينة، تقابلك صفحة الماء زرقاء صافية، خلفها بنايات ذات السقوف القرميدية المائلة، تصطفّ في بهاء ونظام، تقسّم تجمّعاتها طرقات حجرية عتيقة، ومنتزهات أشجارها سامقة ساحرة، تتلوّن أوراقها بالأخضر والبنيّ والأحمر. حين يهزّها النسيم، تتراقص أغصانها، فتتمازج ألوانها، فتبدو كأمواج لا أبعاد لها. حتّى إذا حلّ الغروب على الراين، اصطبغ الوجود بألوان أرجوانية، وعمّ السكون الأرجاء. أكون عندها أنا وعبد الرحمن قد جلسنا بالكاد بمقهى يطلّ زجاجه على النهر الذي يعكس وجه السماء الوردية. أترقّب أن تجيء كاثرين، ابنة صاحب المقهى لتأخذ طلباتنا، وأن ترمقني بتلك النظرة المحتشمة الجادّة، كلّما انتبهت إلى إسهابي في تأمّل جمالها الربّانيّ الجرمانيّ، تتابع نظراتي خطواتها ذاهبة وراجعة، متنقّلة

بين طاولات الزبائن ومنضدة المقهى الرخامية، حيث يواصل والدها ووالدتها التناوب على التنقل بين حوض الأواني ورفوف المشروبات ومواقد النار، وحين تكون عائدة صوب طاولتنا أخيرًا، بين يديها صينية الطلبات، تنظر إليّ الآن نظرة مطوّلة، فيبدأ قلبي العزف مع وقع خطواتها الواثقة السريعة. وعندما تبلغ طاولتنا وتبدأ في وضع كؤوس القهوة بالحليب والخبز وطبق الجبن، دون أن أملّ من النظر إلى بشرة وجهها البيضاء كالثلج، وشعرها المستلقي في دلال كجدائل من حرير أصفر على كتفيها، تميل برأسها تجاهي، ثم تحرّر بسمة دافئة، تدفع برد الألزاس عن عظامي ووحشة الاغتراب عن روحي. ولمّا تقفل مبتعدة، يبدأ عبد الرحمن في الشدو بصوت خفيض بأغنية أطلسية عذبة. حتّى إذا بلغت المنضدة ممسكة بإحدى يديها الصينية الفارغة وواضعة الأخرى على السطح الرخامي، وجّهت بؤبؤي عينيها الأزرقين تجاه بؤبؤي عينيّ الأسودين، فتقصف قلبي مدفعية ألمانية تتهاوى أمام ضرباتها العاتية كلّ خطوط دفاعاتي.

يحدث هذا كلّ يوم، وحين آوي إلى فراشي في كلّ ليلة أعقد العزم على قول شيء لها في الغد. وفي الغد حين تقف أمام طاولتنا وتبتسم، ينكمش لساني داخل حلقي، ويجفّ ريقي، ويشتدّ انطباق فكيّ، فلا أقدر على النبس بكلمة. يضرب عبد الرحمن بركبته على ركبتي، ترتعد فرائصي، ويبدأ العرق في النزول على جبهتي. يقول لي وهو متأكّد أنّها لا تفهم ما يقول: "هيّا يا صديقي!"، لكنّ كلماته سرعان ما تتلاشى أمام عناد صمتي، وصوت خطوات كاثرين المبتعدة.

ونحن عائدان ذات مساء، أنا وعبد الرحمن في اتجاه الثكنة، وقد نزل ليل الألزاس الساكن على الراين، فأحال صفحته إلى مرآة سوداء تعكس أضواء شوارع وبيوت الأحياء المقابلة للكورنيش، وأضواء أبراج حراسة عسكرية تجيء من مرتفعات بالبعيد. قال لي:

- "لماذا لم تقل لها شيئا يا صديقي؟"

- "قد تخونني الشجاعة والثقة في مثل هذه المواقف، لكنّي أصلًا لا أعرف ما يفترض لي أن أقول لها."

رأيت وجهه يتّسع دهشة وسط مزيج من ظلال وأضواء خافتة:

- " كيف بعريف مغوار مثلك شهد أهوال الحرب، وتوّج بميداليات الشجاعة والإقدام أن يهاب الحديث إلى امرأة؟"

- "حتّى وإن كنتَ عقيدًا يا صديقي!" رأيت عينيه تلمعان عجبًا وفضولًا في الظلام، محاولًا العثور على جواب يوقف اندهاشه أكملت:

- " إنّهن النساء يا أخي عبد الرحمن! علاقة الرجل بالمرأة، الأمر ليس مثل أن يذهب أهلك ليخطبوا لك بنتًا من قبيلتكم، بل أنت هنا وحدك، تقصد فتاة لتخبرها برغبتك في أن تكون معها. أحاول أن أبسّط لك الأمر. لكنّه غير قابل للتبسيط."

أرفع بصري صوب ضوء مصباح بعيد:

- " كأنّ الوجود يندثر من حولك، ثمّ تراه قد اختُزل في عينيّ وملامح امرأة، قد حشدت كلّ انتباهها لتنصت إلى ما تروم قوله، تمتلك رصاصة واحدة، إن أطلقتها وأخفقت في إصابة الهدف، فكن

مستعدًا لتلقّي وابل من الرصاص المضاد، أو من يدري ربما قذيفة واحدة تدكّك مع الأرض. لهذا أخبرتك أنّي لا أعرف ما يتوجّب عليّ قوله؟"

- "قل لها: إنّك جميلة! في جمال شجرة..."، قال ذلك وقد رمى كلّ كلامي له خارج رأسه وتناول جملتي الأخيرة. قاطعته ضاحكًا:

- "شجرة؟" ضحكت، "لم أقصد ذلك! بل قصدت كيف أقول لها ذلك بلغة تفهمها هي."

- "لكنّك تجيد الكلام قليلًا بالفرنسية!"

- "الكلام العادي نعم. أريد قهوة أريد خبزًا وجبنًا...، صباح الخير، مساء الخير، كيف حالك؟ لكنّ كلام رجل معجب ومهتمّ بامرأة، هو ما أجد صعوبة كبيرة في التعبير عنه."

كنّا قد بلغنا مبنى الثكنة عند طرف المدينة الشمالي، فوجدنا أمامنا الجنديين الفرنسيين يدخنان ويدردشان أمام السور الخارجي، تحت ضوء مصباح كاشف.

- " العريف بوعزة، العريف عبد الرحمن... مساء الخير! انضما إلينا، ندردش قليلا!" قال أحدهما وهو يمدّنا بسيجارتين.

وقفنا نحن الأربعة ندخن. ثم لم أدرِ كيف فعلت ذلك، إذ نظرت صوبهما وقلت بفرنسية متعثّرة:

- "كيف تقول لفتاة، بالفرنسية، إنّك معجب بها، وبلغة مهذّبة؟"

انفجر الجنديان الفرنسيان ضاحكين، إلى درجة أنّ أحدهما وضع يديه على بطنه قائلًا:

- "يـا إلهـي! عاشـق إلـى هـذا الحـد بيننـا!". بينمـا كان عبـد الرحمـن، قـد انطلـق هـو الآخـر فـي ضحـكات متقطّعـة.

* * * * *

- "إنّنـي معجب بك!" قلت ذلك، ثمّ صمتّ. كنت جالسًا هذه المرة على انفراد، بعد أن صرفت عبد الرحمن للجلوس في طاولة جنود آخرين.

نظـرت إلـيّ نظـرة جـادّة، راحـت عيناهـا تلمعـان، ثـمّ عبـرت بسـمة طفيفـة شـفتيها الورديتيـن.

- "ماذا تريد أن تشرب؟".

سـألتني، فأجبتهـا: "قهـوة!"، دافعًـا بالحـروف الثقيلـة خـارج حلقي.

ذهبت لتحضر القهوة. شعرت بجسدي يشتعل، فتسيل مسامه حممًـا من عرق ساخن. وحين أبصرتها راجعة، نظرتها مركّزة عليّ، بلغ فوران قلبي أعلى حنجرتي.

وضعـت القهـوة أمامـي. بصـري إلـى الطاولـة. فمـي متيبّـس، ويـداي ترتعشـان.

- "بعـد ربـع سـاعة سـأذهب لإحضـار الخبـز مـن فـرن بالزقاق الخلفي."

نظرت في عينيها دون فهم لما رمت إليه.

- "إن أردت أن تقول لي شيئًا، تعالى إلى هناك!"

يا لها من جحيم تلك الربع ساعة، تذكّرت معركة سات باغود، بطني إلى الأرض، والرصاص يئزّ والمدافع تدوّي، هذا جحيم سات باغود أخرى، كنت أتابعها تتنقّل بين الطاولات بثقة ورشاقة، كأنّها لم تسمع منّي ولم تقل لي شيئا، بينما كنت أنا، أغرق في بحيرة من عرق ساخن. ترتعد أطرافي، ولا يكفّ قلبي عن هيجانه. وكان ذهني مشتّتًا ، يحاول على وجه السرعة، استرجاع الكلمات التي أخبرني بها الجنديان الفرنسيان البارحة، وظللت طوال الليل أردّدها بصوت عالٍ في الظلام، وسط ضجيج شخير شركائي في الغرفة.

شربت القهوة على دفعات كبيرة، ودخّنت سيجارة بيد ترتعش، ولم تَحِدْ عيناي عن الغزالة الألمانية، تقفز بخفة هنا وهناك، ثم رأيتها تدخل خلف الجدار القصير وتختفي، ثمّ عادت تحمل أمامها سلّة قصب صفراء، تفتح باب المقهى الزجاجيّ وتخرج، تخشّبتُ في مكاني، يدي ترتعش أمام وجهي، وحمم بركانية تفور داخل صدري، كلّ من في المقهى الآن حتمًا يراقبني، ينتظر قيامي بالمهمة. لقد صمتوا عن الحديث والضحك جميعًا، ووجّهوا أبصارهم إلى طاولتي، أسقطت ما فضل من السيجارة داخل المنفضة، ألقيت نظرة حولي، لا شيء تغيّر، الصخب يعمّ المكان، ولا أحد ينظر تجاهي. حتّى عبد الرحمن كان يهزّ رأسه وعيناه إلى الأرض، موافقا على شيء قاله أحدهم إلى جانبه. لا أحد على علم بما يجري. لا أحد، سوى أنا وهي.

انتفضت راكضًا صوب الباب، دفعته، التفت يمينًا، شمالًا. ثّم رأيتها تلتفت يسارًا عند زاوية الشارع، ركضت، ببذلتي العسكرية ركضت، وسط المارة في شوارع سان لويس، مثلما أركض في ساحات

المعارك وأوقات المطاردات، ركضت وشعاع الغروب الساقط على الرصيف ينعكس على وجهي، فيغشى بصري لون واحد، نفق برتقالي، نهايته ضوء يشعّ عند زاوية الشارع، لما بلغته استدرت، فرأيتها بالكاد تلج الفرن.

كان الزقاق حيث يتواجد الفرن عريضًا كأنّه شارع، لكنّه على عكس الشوارع كان قليل الحركة، صامتًا، هادئًا، إلى درجة أنّي كنت أسمع وقع خطوات المارة عند طرفه الآخر. أرضيته مصفوفة بحجارة ملساء، سوداء وزرقاء ورمادية. ورغم أنّها كانت مظلّلة ببنايات عالية عن الجانبين، ورغم أنّ ضوء الشمس صار خافتًا الآن، إلّا أنّها كانت تلمع بشكل غريب، وتعكس الظلال المتحرّكة فوقها.

وسط هذا الهدوء اللذيذ، نزلت عليّ السكينة، هدأ روعي، استقرّت أنفاسي، وحلّت بنفسي ثقة عظيمة، رأيتها تخرج من الفرن، خصلات شعرها الأصفر تلاعبها نسمات المساء بوداعة، مئزرها الأبيض مثبّت على عنقها وخصرها، أسفله فستان ذو كمّين طويلين، مزركش برسومات أزهار صغيرة متداخلة، يغلب عليه الأحمر والوردي الداكنين، وينزل حتّى يقارب كاحليها. بدت كتوتة برّيّة استوفت حقّها في النضج. رأيتها، تترنّح في خطواتها من شدّة ثقل سلّة الخبز. وفكّرت: "لا يحقّ لهذا الجمال العذب، أن يحمل الأثقال ويشقى في خدمة جنود كسالى معتوهين..."، وقلت: "تبًّا، لو كنت قادرًا على قول ذلك لها بالفرنسية!". وبينما قطعت هي نصف المسافة التي تفصلها عنّي، انبريت مهرولًا نحوها، ثمّ مددت يديّ صوب السلة:

- "لو سمحت أحملها عنك؟"

بهدوء، سحبت السلة من بين يديها، حتّى دون أن أتلقى الموافقة منها، ودون أن أنظر أنا إلى السلة، كنت أنظر إلى عينيها الواسعتين كبحيرتين صافيتين، يعلوهما حاجبان دقيقان طويلان في لون الكستناء. حين صارت السلة بين يديّ، رسمتْ ابتسامة كأنّها عنقود عنب، وقد وجّهت بصرها صوب الأرض، ثمّ ألقت بيديها داخل جيبيّ مئزرها الواسعين المطرّز أعلاهما بمثلّثات صغيرة برتقالية. وكان الزقاق بأرضيته الحجرية اللامعة وسكونه العجيب، يلفّني بدفئه، وعند نهايته كان يبدو جزء من صفحة الراين والأفق يكتسيان ببرتقالي الغروب، بينما رائحة الخبز الساخن ترتفع من السلة وتصفع وجهي، فراحت الفرحة تدغدغ قلبي. في تلك اللحظة شعرت وكأنّه قد نبت لي جناحان. وبينما الثقة في النفس تنعكس ابتسامة على محيّاي، انطلق لساني بكلمات فرنسية منتقاة يفتتح حديثا عذبا طويلًا مع الفتاة الألمانية.

## (قصة حبّ بالألزاس - 2)

حلّ شتاء الألزاس البارد على سان لويس، لكنّه لم ينل منّي هذه المرّة، ولا ضراوة الأشغال بالغابة والطرقات، ولا مناورات السفن الليلية على مياه الراين المثلجة، لقد اكتسبت مناعة!

العشق يمنحك جرعات من قوة الصمود والتحمّل تعبر طوال الوقت عروقك وأعصابك، فتتدفّق الطاقة عبر جسدك فلا ينال منه قرّ ولا حرّ ولا كلل، حتّى النوم، تصير مكتفيًا بالبعض منه، لأنّ قلبك وعقلك ينتفضان طوال الليل، فلا يمنحان للعيون فرصة الهروب إلى ما وراء حدود اليقظة، تضحي روحك خفيفة، كأنّها تحلّق بك. ويصير الوجود كلّه من حولك جميلًا، لا مشاعر ضغينة يحرّرها قلبك، ولا أفكار قاتمة يطلقها عقلك، ويمشي الزمن وفق إيقاع مغاير، وكأنّ اللحظة منه تصير سرمدية، لا بداية ولا نهاية.

أسابيع من حياة أخرى غير كلّ الحيوات التي عرفتها، أعيشها مع كاثرين، فتاة المقهى الألمانية.

يسألني عبد الرحمن أن أصف له ما أشعر به، كنّا على ظهر السفينة، في طريق عودتنا من دوريّة ليلية، مستندين على الأعمدة الحديدية الأفقية، وكانت أضواء قادمة من بيوت على الضفة بضواحي المدينة تنعكس على صفحة النهر، وتلتمع في عينيه الداهشتين، بينما صوت الماء والسفينة تمخر عبره على مهل، يطرب آذاننا.

- "صعب عليّ أن أصف لك ذلك، حتّى إن استطعت تحويل ما أشعر به إلى كلمات، فأنا أشك أنّك قادر على فهمه. صديقي عبد

الرحمن، المشاعر تُحسّ وتعاش. ووصفها مجرّد محاكاة تنتهي دومًا بالإخفاق."

- "فكيف تعبّر لها عن ذلك؟"

- "لا أعبّر لها كثيرًا. كلمات مختصرة تفي بالغرض. لأنّ المشاعر تسافر عبر النظرات، عبر الأنفاس، وعبر... كيف أشرح لك الأمر؟ تسافر لوحدها، أنت تحسّ بمشاعرها، وهي أيضا تحسّ بمشاعرك."

- "لكن كيف؟ كيف يحدث ذلك؟"

- "والله لا أعلم يا صديقي! الأرواح تتجاوب مع بعضها. والقلب يعزف على إيقاع ذلك."

بعد لقائنا الأوّل في زقاق الفرن، تكرّرت لقاءاتنا في نفس المكان، كلّما أبصرتها قد حملت السلة، إلّا وانطلقت في أثرها تاركًا عبد الرحمن وسط سحابة من دخان. كثر الجنود الذين علموا بأمرنا. في البداية كانوا يسألون عبد الرحمن، وحين وجدوا أنّ إجاباته لا تشفي غليل فضولهم تجرّأ بعضهم وسألني مباشرة. حين كنا نجلس بمطعم الثكنة لتناول وجبة العشاء، ومدفأة الحطب بالجدار الأمامي تنشر الدفء بالمكان، ينضمون إلى الطاولة حيث أجلس، ويشرعون في محاولات جرّي إلى الحديث عن علاقتي بكاثرين، لكنّي ألوذ بالصمت وتحرير ابتسامة أو ضحكة، لكنّ الأوغاد يصرّون، فأضطرّ إلى قول أي شيء لصرفهم عنّي.

صارت لقاءاتي بكاثرين تتمدّد، فبدل قطع المسافة القصيرة التي تفصل الفرن عن المقهى، صرنا نجوب الشارع على ضفّة النهر،

بسلة الخبز الفارغة حتّى نهايته، ثم نصعد عبر شارع آخر، ونلفّ عبر شارع ثالث، قبل أن نتسلّل عبر أزقة طويلة هادئة تنتهي بنا إلى زقاق الفرن.

ذات صباح، اصطحبتني معها لجلب الجبن من مزرعة بعيدا عن المدينة. في العادة تستخدم دراجتها الهوائية من أجل هذه السخرة. لكنّها اقترحت أن تذهب مشيا ما دمت سأرافقها. قلت لها: "لا عليك! بل إنّي سأجد ذلك ممتعًا أن أرافقك وأنت على متن الدراجة.".

تجاوزنا سكّة الحديد. تركنا أحياء سان لويس خلف ظهرينا، عبرنا قرب إحدى البلدات، وقطعنا نهرًا، ثمّ مضينا صاعدين عبر طريق إسفلتية تخترق حقول عنب وقمح وشعير وبرسيم تمتد على الجانبين وأمامنا، امتداد البصر. كانت هي على الدراجة تدير عجلتيها على مهل، بفستان بلون الحليب، وقبّعة شمسية دائرية ذات لون أصفر فاتح. بينما أمشي أنا على يمينها ببذلتي العسكرية كاملة، بالقبّعة القطنية الخضراء وحذاء عسكري خفيف. كان صباحًا نديًّا، هواؤه منعش، وسماؤه محجوبة تمامًا بسحاب ضبابي رمادي كثيف ومرتفع، وعند الأفق تتلبّد بضع غيوم داكنة. وكانت كتل هواء محمّلة برذاذ خفيف تصفع وجهي بين الفينة والأخرى، وكلّما تضاءلت بنايات سان لويس مبتعدة خلفنا، إلّا وشعرت أنّ انعزالنا هكذا بين الحقول المترامية، يقرّبني أكثر منها، ويجعلها تبدو أقرب إليّ. لعلّي فكّرت حينها أنّ الزوجين – ذكراً وأنثى – هما بذرة الحياة، نواة الوجود، كأنّ الكواكب والنجوم والكون كلّه يدور في تبجيل لهذه

الثنائيـة المتوحّـدة. هـذه المشـاعر المتبادلـة بيـن رجـل وامـرأة هـي شـرارة النـار التـي تصنـع الحيـاة. هذا التجـاذب الغريب، القوي، ليس أمـرا عبثيًـا، إنّـه لغاية، غاية سـامية. الرجل يعمل فـي الحقل والمصنع والدكان والعسـكر...، والمرأة تعمل بالبيت والحديقة والمطبخ وترعى الأبنـاء... الرجل يجلب لها الرزق والأكل واللباس، وهي تطبخ له الطعام وتخيط له البذلة والجلباب. وعندما يجلسان معًا يدردشان على مائدة العشاء، يزول التعب عن جسديهما المنهكين، وتستعيد روحاهما طاقة الانطـلاق مـن جديـد. وحيـن ينامـان معًـا، تتوحّـد ثنائيـة - ذكـر وأنثـى -، وتندمـج الروحـان، لتمضـي أوجـاع الحيـاة ومشـاقّها، وتندثـر هبـاء فـي النسـيان. إنّهـا صـورة مـن صـور الخلـق العظيمـة. وسـرّ إلهـي بالـغ الحكمـة، يعجزنـا بـه كلّمـا وقفنـا أمامـه فـي محـاولات تأمّـل وتدبّـر. ثـمّ ينجـم عـن هـذا التوحد أبنـاء، فيتحوّل العدد "اثنان" إلى أعداد أخرى، حيوات جديدة. ثمّ يكبر الأبناء ويتزوّجون هم أيضا وينجبون الأحفاد، فتتشكّل العائلة، امتدادًا للزوّجين الأوّلين ...

قاطعتْ كاثرين ما كنت ربما غارقًا في التفكير فيه حينها، عندما نزلتْ عن الدراجة وهي تسلّمني مقودها قائلة:

- "هيّا يا بوعزة! قد حان دورك الآن."

أجبتها متراجعًا:

- "لا يـا كاثريـن! لا يصـحّ أن أصعـد أنـا الدراجـة، بينمـا أنـت تمشين علـى قدميك!"

- "حسنا إذن! كما تشاء، نمشي نحن الاثنان معًا!"

مشينا معًا مسافة المائة متر تقريبًا، وقد ترجّلت هي عن الدراجة، تسحبها إلى جانبها من مقودها، التفتت تجاهي التفاتتها السريعة التي تظهرها وكأنّها غاضبة:

"حسنًا، إن لم ترد ركوب الدراجة وأتمشّى أنا، قُدها أنت، وأجلس أنا على المقعد الخلفيّ."

كان هذا تحديًّا صعبًا بالنسبة لي، فأنا لم يسبق لي قيادة دراجة إلّا مرات قليلة، فكيف أفعل ذلك الآن، بينما يجلس آخر بالمقعد الخلفي؟ وليس أيّ شخص، إنّه كاثرين. كيف سيبدو شكلي عندما سأجد صعوبة في مواصلة السير بالدراجة مسافة طويلة دون أن يلفّ بي المقود على حين غرّة، أو تتزلق قدمي أرضا في محاولة للتحكّم بالاتجاه أو تخفيف السرعة؟ ربما نقع معًا. وتتأذّى هي. حتمًا سيكون ذلك محرجًا.

- "واصلي قيادة الدراجة أنت يا كاثرين، وسأمشي أنا إلى جانبك. هكذا أفضل."

- "ماذا؟ لماذا لا تريد أن نركبها معصا؟"

ظللت صامتًا، وسخونة الخجل تعصر وجهي، نظرتْ إليّ نظرة حادّة، ثمّ مضت مسرعة الخطى، تجرّ الدراجة في غضب.

لحقت بها راكضًا، لم تخفّض من وتيرة مشيتها.

- "أنا لا أجيد قيادة الدراجة يا كاثرين!"

قلت. لمّا رأيت إمكانية اللحاق بها أمرًا مستعصيًا.

توقّفت فجأة. نظرت إليّ مبتسمة هذه المرة.

- "حسن. هذه فرصتك لتتعلّم القيادة."

ربما قد بلغت كاثرين رغبتها؛ إذ جعلتني، لمسافة كيلومتر تقريبًا، أقود الدراجة، بينما تهرول هي تارة إلى جانبي، وتارة أخرى تركض شادّة طرف فستانها إلى أعلى قليلًا.

كنت أترنّح بمقود الدراجة. أضع قدمي أرضًا أحيانًا، وأحيانًا أنهض عن الكرسيّ وأحاول التجديف بقدميّ واقفا، لكنّي ما ألبث أن أخفق فتنزلق قدمي، وتكاد ذقني تصطدم بحديدة المقود. بينما كاثرين، تحاول أن تبدو جادّة وهي توجّه إليّ التعليمات والنصائح، لكنّها ما تنفكّ أن تنفجر ضاحكة، واضعة يدها أحيانًا على فمها.

في طريقنا تجاوزنا بلدة، كنّا مترجّلين عن الدراجة، ونحن نعبر شارعها الرئيسي، والذي هو امتداد للطريق الذي جئنا عبره، راح الناس يتابعوننا بنظراتهم الفضولية المندهشة، الرجال من المقاهي والأرصفة، والنساء من نوافذ البيوت والشرفات. فتاة شقراء، عيناها زرقاوان، ووجهها أبيض كالثلج، وجنديّ أسود البشرة، أسود العينين، ضامر الملامح، يسحبان دراجة هوائية، يهمسان لبعضهما، ويبتسمان كعشيقين. أليس هذا مدعاة للفضول والاندهاش. لكنّ كاثرين قالت لي: "لا تهتمّ! فالناس في مثل هذه البلدات الصامتة النائمة، لا همّ لهم إلّا التحديق في الغرباء والعابرين!".

سرعان ما خرجنا، وواصلنا طريقنا، وسط الحقول المترامية، ثم ولجنا غابة عبر طريق شديدة الضيق، تحاصرها أشجار الغابة الكثيفة السامقة من الجانبين وتطبق عليها، وكأنّنا نعبر نفقًا ضيّقًا وسط جبل، ثمّ سارت بنا طريق الغابة الضيقة بمحاذاة نهر. كانت هي الآن على الدراجة وأنا أمشي جنبها، ورحنا نسمع إلى

جانب صوت عجلتي الدراجة وزقزقة طيور الغابة، صوت مياه النهر المتدفق تيّاره عكس اتجاه مسيرنا. فواصل الكون اختزاله ليشملني أنا وكاثرين فقط، وهذه الأصوات العذبة، وهذه الطريق التي تخترق بنا مظلة من الأشجار يحفّها نهر رقراق. وشعرت أنّ العالم لم يعد موجودًا، وأنّ كلّ الأماكن التي أعرفها قد اندثرت، وأنّي إنسان لا ماضي له، لا ذكريات سحيقة موجعة، لم يخض حربًا، ولم يرتحل عبر بلدان ومناطق، بل هو لم يتجاوز هذه الطريق ولم يكن موجودًا قبل اللحظة. كاثرين تدير عجلتي دراجتها، تنظر إليّ بوجه ينير كالبدر وتبتسم، وأنا إلى جانبها لا أهرول ولا أمشي، بل أحلّق كعصفور بين الأشجار.

افترقت الطريق عن مجرى النهر. ثمّ ما لبثنا أن غادرنا الغابة. وعادت الحقول لتنبسط من حولنا. قطعنا نهر ثالثًا، ثمّ بلغنا بلدة أخرى أصغر من الأولى. سألتها عن اسم البلدتين، قالت إنّ الأولى اسمها بلوتزيم والتي أمامنا الآن اسمها كابيلن، والتي عبرنا إلى جوارها قرب سان لويس اسمها هزينغ. قلت لها:

- "إنّ أسماءها تبدو ألمانية، مثل بتلاخ." سألتني :

- "هل تعرف بتلاخ؟" أجبت:

- " نعم، فقد قضيت بها بضعة أشهر، لكنّي سرعان ما غادرتها فارًّا من بردها الشديد." ضحكتْ:

- "وهنا ألم يزعجك البرد؟"

- "في البداية نعم، لكن عندما رأيتك، لم أعد أشعر به. بل بالعكس، يشملني الدفء طوال اليوم، وأحاسيس عذبة أيضًا..." ابتسمتْ. ثمّ أشارت بيدها:

- "هذه هي المزرعة." كنّا نمشي حينها على طريق ترابية على يمين البلدة الصغيرة.

ولجنا المزرعة، مساحتها عظيمة، محاطة بسيّاج سلكيّ، وأشجار متقاربة، عن يميننا كان قطيع من أبقار (هولندية) مزركشة بالأبيض والأسود. يرعى في حقول من عشب كثيف شديد الخضرة. تقدّمنا عبر الطريق الترابية التي تخترق المزرعة، صوب المباني الحجرية المقابلة. عن يسارنا حظائر مشرّعة على طول الطريق. بلغنا نهاية الطريق حيث المدخل المفضي إلى بيت صاحب المزرعة، تتقدّمه حديقة ذات سور حجريّ قصير، خلفه تتصب أشجار مثمرة. لففنا جهة اليمين. سرنا قليلًا. ثمّ توقّفنا أمام باب بناية ذات جدران عالية.

- "هنا أين يصنعون الجبن!"

قالت كاثرين مشيرة إلى الباب الموارب. أسندت دراجتها على الجدار. ثمّ نزلت عبر درج عال أتبعها متلكّئ الخطوات.

بمعمل الجبن الصغير، كان الأب ومن يبدوان أنّهما ولداه، منهمكين بمراقبة عمليّة تحوّل الحليب إلى أجبان، منتقلين بين براميل خشبية كبيرة ذات أغطية. كان الأب كهلًا، بدينا، بكرش هائلة، شعر رأسه أبيض، تتقدّمه صلعة أمامية عريضة، حتّى وجهه المحلوق بغير عناية نال من شعره المتناثر البياض. تتدلّى على أنفه نظارة طبية دائرية الزجاج، مشدودة بخيطين إلى الأذنين. بينما ابناه أشقران طويلا القامة نحيلان. يرتدون جميعا مآزر بيضاء، وسراويل جينز فضفاضة، وينتعلون أحذية مطرية طويلة.

توجّهت كاثرين صوب الأب في عمق الغرفة الشاسعة. وبقيت أنا قرب الباب تزكمني رائحة تخمير قويّة، وما لبثت أن عادت تحمل سلتين قصبيتين. ابتسمت وهي تسألني إن كانت قد تأخّرت، أجبتها بالنفي، خرجنا. أمسكت لها الدراجة بينما هي تقوم بتثبيت السلتين على مقعدها الخلفيّ، سألتها: "هل هؤلاء ألمان؟"، أجابت: "نعم."

ونحن في طريقنا إلى مغادرة المزرعة، رمقت، بعدما تجاوزنا الحظائر الفارغة المشرّعة، ما بدا كفوهة مدفع، تطلّ من بين أغصان شجرة وارفة.

"انتظري لحظة!"، قلت لكاثرين وانطلقت راكضًا صوب الأجمة الصغيرة، أزيح الأغصان عن طريقي، بينما بقيت هي متخشّبة في مكانها، تتابع جريتي بنظرات مندهشة وقد أحكمت قبضتي يديها على مقود الدراجة، ربما كانت تتساءل مع نفسها: "إلى أين يذهب جافلًا هكذا؟".

تجاوزت تشابك الأغصان الكثيفة، فإذا أنا أمام دبّابة صغيرة. لونها مزيج من الأخضر والبنيّ والأصفر، وعلى ظهرها علامة زائد باطنها أسود وأطرافها بيضاء، درت حولها لفّة كاملة. استطلعت سطحها وانحنيت أتأمّل عجلاتها الست داخل السكة من أحد الجانبين، ثمّ مددت يدي أتحسّس سطحها البارد الخشن، وفوهتها. رجعت إلى الخلف أتأمّلها. لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا. مصفّحة بالكامل. بمعدن ثقيل. حتّى مقصورة القيادة مخفية بشكل مذهل. إنّها تبدو متجانسة، كأنّها قطعة حديد واحدة. عجلاتها حافظت على ألوانها الأولى، الأصفر والأخضر والبنّيّ. تبدو جديدة،

وكأنّها غادرت المصنع بالكاد. إنّها بألوانها هذه وتجانس أعضائها تبدو أشبه بضفدع برّيّ ضخم ساكن وسط العشب.

سمعت صوت خشخشة خلفي، فإذا هي كاثرين تتقدّم تجاهي ثمّ تتوقّف إلى جانبي.

- "إنّها دبّابة ألمانية!" قالت، "إنّها من مخلّفات الحرب العالمية الثانية."

ونحن نستدير راجعين لنأخذ الدراجة المستندة على جذع شجرة ونستأنف طريقنا. أكملت:

- "الألزاس منطقة نزاع متواصل، فإبّان الثورة الفرنسية آواخر القرن الثامن عشر صار الألزاس فرنسيًا. وفي حرب ١٨٧٠ صار ألمانيًا، تابعًا لمملكة بروسيا. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، استعادته فرنسا. وفي الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد سنة ١٩٤٠، عاد إلى ألمانيًا، حتّى نهاية الحرب ١٩٤٥، ليصير فرنسيًا مرّة أخرى..."، قالت ذلك وضحكت.

- " وأنت ماذا تقولين؟"، سألتها. وكنّا الآن نقطع جسر النهر قبيل الغابة. وكان الجوّ الضبابي الرطب في أعالي السماء، لازال مخيّمًا.

- "في ماذا؟ "

- "في الألزاس... هل هو فرنسي أم ألماني؟"

ابتسمت:

- "كيف أشرح لك الأمر؟ حسنًا... نحن الألزاسيون، سواء كنّا ألمانًا أو فرنسيين أو نمسويّين أو غجرًا أو غيرهم، لا نريد إلّا أن نحظى بسلام دائم. لقد تعب الألزاسيون من الحروب."

- "هل تتذكّرين الحرب الثانية؟"

- "كنت لا أزال صغيرة. ذكرياتها ضبابية. لكنّي أتذكّر بعض المشاهد، لاسيما في نهاياتها. وقد حكى لنا آباؤنا، وأجدادنا عن فظائع الحربين العظميين، الأولى والثانية. لذلك تربّينا نحن، هذا الجيل على رفضها، والميل دائما إلى المواقف التي تروم السلام. انظر، نحن هنا من عرقيات عديدة، نتكلّم أكثر من لغة، وثقافاتنا مختلفة، ومع ذلك نعيش في إخاء، شعبًا واحدًا..."

صرنا نمشي الآن بالطريق وسط الغابة. وقبل أن تصعد كاثرين دراجتها، توقفت:

- "آه نسيت."، ثم أزالت الغطاء عن إحدى السلتين، وناولتني قطعة جبن. "خذ! تذوقّه طازجًا!"

كانت ألذّ قطعة جبن تذوّقتها في حياتي، من أصابع كاثرين مباشرة إلى أصابعي ثمّ فمي.

- "كيف وجدتها؟" سألتني، وكانت قد صعدت الدراجة.

- "مثل شهد العسل!" ضحكتُ:

- "تشبيه بليغ!" ثم واصلت: "أتعلم؟ بالألزاس لا ننتج الكثير من الجبن. على عكس النبيذ، فالألزاس معروف بصناعة النبيذ، الأحمر والأبيض. لكن الجبن، هو قليل، لكنّه ذو جودة عالية، ونصنعه هنا بالألزاس وفق التقاليد الألمانية..."

كان النهر الثاني قد بدأ يبعث خريره، يصاحبنا في رحلة العودة. وقد عاد الإحساس بالألفة يهزّ مشاعري. قلت:

- "ببلدي، وبالتحديد حيث قبيلتي، لا نصنع مثل هذا الجبن.

بل جبنا آخر، بطريقة أخرى، ومذاق مختلف تمامًا، ونسميه كذلك: الجبن. وأهل المدن يسمونه: الجبن البلدي. أمّا صناعة الخمور فهي قليلة عندنا. لأنّه محرّم علينا في ديننا شربها، أو عصرها، أو حتّى حملها..."

- "حقّا؟" تساءلتْ، "وما هو طعامكم المفضّل إذن؟"

- "سأتكلّم عن قبيلتي، نحن نعشق الشواء، الخرفان والماعز، لدى والدي قطيع عظيم من الماعز، إذا سار في السهل حجبه، وحين يدخل الغابة، يصعب عليك مراقبته... ذات مرّة هاجم قطيعي الذئب، كنت لا أزال صبيًّا، أرعاه بالغابة بمفردي..."

ثمّ حكيت لها، ونحن نواصل سيرنا عبر الطريق، حكايتي مع الذئب، وما تلاها من عقاب أهلي وفراري منهم، إلى التحاقي بالخدمة في الجيش الفرنسي.

## (قصة حبّ بالألزاس - 3)

- "هل تودّ الزواج بها؟"

كنت جالسًا وعبد الرحمن وجنديان آخران، أثناء نوبة حراسة ليلية أسفل شجرة، عند طرف الغابة على ضفة الراين، وقد أوقدنا النار، وغلينا الشاي. حين قام الجنديان الآخران (مغربيّان من الأربعة الذين انتقلوا رفقتي من بوردو) يتمشيّان، أطلق عبد الرحمن سؤاله الثقيل في وجهي.

حدّقت في ألسنة النار المتراقصة، ثمّ رفعت بصري صوب هالة النور التي ترتفع فوق مدينة بال السويسرية، على الضفة الأخرى. أجبته:

- "هذا الأمر يؤرقني يا عبد الرحمن..."

- "كيف؟ لماذا؟"

- "لم يفضل على تقاعدي، إلّا القليل. سنتان وبضعة أشهر."

- "حسنًا، وأين المشكل؟"

- "المشكل أنّي أفكّر في الرجوع إلى البلد مع نهاية الخدمة."

- "ألا تريد المكوث بفرنسا؟ ستفقد المعاش السمين يا أحمق. إن عدت إلى المغرب لن يدفعوا لك إلّا القليل!"

ابتسمت، رشفت من الشاي الساخن، أسندت ظهري إلى جذع الشجرة، وأجبته مفتخرًا:

- "نحن قوم أثرياء، أبي رجل باذخ الثراء، لقد حكيت لك عن القطعان العظيمة، والأراضي الخصبة، الحقول، والبساتين...

هل في نظرك أترك كلّ هذا الفردوس، وأقعد هنا بفرنسا، أنتظر كلّ شهر راتب التقاعد؟"

قاطعني:

- "يمكن أن تحصل على التقاعد، وتعمل أيضا هنا. في المصانع، في المناجم، في السكة الحديد..."

وجّهت بصري إليه وأنا أرشف المزيد من الشاي:

- "أقول لك لدينا قطيع ماعز حين يتمدّد عبر سهل لا يحدّه البصر، لدينا حقول لا تعرف أوّلها من آخرها... وأنت تقول لي أعمل في المناجم؟"

فتح عبد الرحمن فاه، وقد سرح خياله في تصوّر ما أصف، ثم رفع كأس الشاي في بطء شديد إلى فمه، رشف رشفة مطوّلة مصدرًا صوتًا، ثمّ قال:

- "حسنًا، وما علاقة كلّ هذا بكاثرين؟"

تنهدت بعمق، وضاعت نظرتي في بقعة ضوء تتلألأ على صفحة الماء السوداء:

- "كاثرين لا تريد الرحيل عن هنا."

- "لكن كيف تعرف أنها لن تريد الذهاب معك؟"

- "لقد فاتحتها في الموضوع... هل ما زلت عندك سيجارة؟"

- "أجل، خذ! أكمل!"

وضعت مقدّمة السيجارة وسط اللهب، ثم رفعتها صوب شفتيّ اليابستين. سحبت نفسًا عميقًا من الدخان، هيّأت نفسي لاستئناف الحديث، لكن، ما كدت أنطق بكلمة حتّى بلغ أذنيّ الباردتين

صوت خشخشة أوراق الشجر على الأرض تسحقها أحذية الجنديين الآخرين وهما يقتربان.

* * * * *

ليلة طويلة أخرى، النوم يجافي عينيّ، وقلبي ينتفض داخل صدري. سؤال عبد الرحمن فتح أمام ذهني باب من الجحيم، كنت أتفادى فتحه كلّما عبرت قريبًا منه، زادت من أرقي، كؤوس الشاي شديدة الغليان التي لم أتوقّف عن الرشف منها طوال ساعات الحراسة. انتهت نوبتنا مع منتصف الليل. عدنا إلى الثكنة، تناولنا عشاءنا المتأخّر بالمطعم، حساء خضر، أرز وبيض مسلوقان، خبز وقطعة جبن، وتفّاح. تثاءبنا حول طاولة الطعام، وفركنا بشدّة عيوننا، ومشينا بخطى هدّها التعب والسهر نحو مضاجعنا. لكنّها ساعات وأنا أتقلّب في فراشي، ذات اليمين والشمال، دون أن أعثر على نفق العبور نحو النعاس. أشعة من أضواء الثكنة الكاشفة تتسلّل عبر شقوق ألواح النوافذ العالية، تزيد عينيّ انفتاحًا في فضاء الغرفة، التي أتشاركها أنا وثلاثة جنود آخرين. شخير أحدهم لم يتوقّف. وأصوات كلاب وطيور تجيء من بعيد. أسمعها، ولا أسمعها، لأنّ عقلي منشغل، يدور كمراوح الهواء التي تسحب الماء من الآبار. أحيانا وأنا غارق في التفكير، يخيّل إليّ أنّي ما زلت في مقصورة بباستور، تؤرجحها بلطف أمواج المحيط. ما زلت مستلقيًا على سريري هناك، في رحلة عودتي الأخيرة من الهند الصينية. وكأنّ كلّ هذا الذي حدث لي، ووقع من

حولي، هو محض حلم طويل يسبّبه دوار المحيط، لكنّي حين أسحب صورة كاثرين من تحت الوسادة، وتجاهد عيناي لتمييز أبعادها في الضوء الأصفر الذي ينعكس على الجدار خلفي والسقف، أسترجع كامل وعيي، وأدرك أنّ هذه التخيلات سببها الأرق وإجهاد ذهني في التفكير. وكأنّ جزء من عقلي دخل عالم الأحلام، بينما ما تزال عيناي صاحيتين، وجزء آخر منه متيقّظ تماما. يبدو هذا غريبا، لكنّه سبق وحدث معي مرات كثيرة، لاسيما في زمن الحرب، وقبله أيضا، أيّام فراري من أهلي. وأعتقد أنّه يحدث مع كثير من الناس الذين يرهق أذهانهم التفكير الكثير وقت النوم.

يطرح ذهني، المتيقظ الآن كلّه، سؤالًا واحدًا، باحتمالين لا ثالث لهما: أتزوّج كاثرين وأستقرّ معها هنا بفرنسا، أو أتخلّى عنها، وأرجع دونها إلى بلدي. قد أعتبر بوجود احتمال ثالث. ليس بيدي أن أختاره، هو خارج نطاق ملكيّتي، فكاثرين هي من تمتلكه، وهو أن نتزوّج ثمّ توافق على الرحيل صحبتي للعيش في المغرب.

"لا يمكنني الرحيل عن أهلي وبلدي يا بوعزة، قد أرحل معك إلى مكان آخر قريب، هنا بفرنسا أو ألمانيا أو سويسرا، لكن إلى بلد خلف البحر. مستحيل. الفرنسيون يعودون من مستعمراتهم، وأنا أمضي عكس ذلك. صعب، صعب جدًّا عليّ، وعلى والديّ..."

أنظر إلى عينيها يزيدهما النور الخافت اتساعًا في الصورة، يخفق قلبي بشدّة، يمدّ يدين طويلتين، تتسلّلان بين أضلعي، يصرّ على التمسك بكاثرين، يربطني إليها بوثاق من حديد. ويهمس في رأسي بكلمات مستعطفة: "أرجوك، لا تتخلّى عنها!". أظلّ لزمن معلّقًا

بحبال مشاعر لذيذة حالمة، ثم يعبر مشهد من بوعيّاد، في وقت يبدو كأنّه آخر الربيع أو بداية الصيف، فالحقول تتوزّع ألوانها بين الأخضر الشاحب والأصفر الباهت، وسنابلها، ممتلئة بالحبّ، مكتملة النضج، وأنا أمضي في سبيل بينها، على صهوة حصان، فيطير بي خيالي سريعًا إلى هناك، في زمن آخر، قد يكون بعد بضع سنوات، ثمّ يبدأ قلبي في الخفقان وفق إيقاع آخر. فلا حيلة له، هو يفضّل كاثرين، كيفما ستكون الأحوال، عقلي لا يريد منّي التواجد في مكان غير فردوس بوعيّاد، يقول لي: "لماذا تصر على المكوث هنا؟ وما الذي ستفعله بأرض الغرباء؟ هل ستمضي حياتك كلّها شريدًا في بلدان الآخرين؟ لا تنسَ أنّك حين ترجع إلى بوعياد ستصير سيّدًا من أسياد الحوامد كلّها...".

وبين هذا وذاك أغرق أنا في ليلة أرق جديدة، لا توصلني لميناء قرار.

## (قصة حبّ بالألزاس - 4)

أواخر ربيع سنة ١٩٦٢،

أيّام قليلة، وأحصل على إجازة ثلاثة أشهر. اعتبرت ذلك الوقت هو الأنسب لطلب الانتقال إلى مكان آخر، إن أردت الانعتاق من أسر كاثرين الذي يوثق قلبي... وهو أيضًا الوقت الفاضل أمامي إن كنت أنوي التقدم لطلب يدها قبل أن تباغتني القيادة بقرار نقلي إلى مكان آخر.

في هذه الفترة، صار كلّ شيء بيني وبين كاثرين، مكشوفًا. هي أدلت بقرارها، نهائيًا لا رجعة فيه، وأنا ما زلت أتأرجح بين كفّتي ميزان، صارت أحاديثنا أكثر نضجًا وواقعيّة. هي لا ترى مستقبلها أبعد من سان لويس، أو بال السويسرية، أو ستراسبورغ، أو منطقة أخرى بالجوار.

"أرجو أن تتفهّم قراري يا بوعزّة، أنا لا أعلم ما يخبّئه المجهول لي وراء البحر، هناك بإفريقيا. وأنا لا أريد الابتعاد كثيرًا عن أهلي، أمّا أنت فتستطيع ذلك، أن تعيش بعيدًا عن أهلك، ألم تقل لي أنّك كنت تكرههم، وأنّك ظللت في فرار منهم طوال حياتك؟"

لم تكن كاثرين تدري أنّ منطق الأمور يسير نحو التغيّر الآن، بل وقد يزداد تغيّرًا نحو الأفضل في المستقبل القريب، حين أتقاعد عن الخدمة العسكرية، وأستقرّ هناك، معزّزًا مكرّمًا في خيرات والدي التي لا تعدّ ولا تحصى. لقد سبق وحكيت لها كيف بحثوا عنّي ووجدوني بأحد فنادق الرباط، ثمّ كيف استقبلوني وكيف احتفلوا

بمقدمي. لكنّي تحاشيت أن أسرّ لها بما أخطّط القيام به ما إن أرجع بشكل نهائيّ إلى هناك.

صرت أضغط على نفسي بشدة، كلّما فطنت أنّ مرور الوقت بي، وأنا بعد لم أرسُ على أيّ قرار، يقرّبني أسرع نحو موعد الإجازة. وفكّرت أن التردّد مجرّد عذاب متواصل، لا يوصل لشيء.

ذات ليلة. بعد أن تناولت وجبة العشاء. ملأت كأسًا من القهوة من الإبريق المعدني الكبير الذي يضعه عمال المطعم على المنضدة بين المطبخ وقاعة المطعم، ثم غادرت صوب ساحة الثكنة، كانت الساحة فارغة، إلّا من حارسين أعلى البرجين. جلست على حافة أسفل جدار الثكنة الداخلي، فوق رأسي مصباح كاشف مثبّت أعلى الجدار. شعرت بحرارة ضوئه تلفح رقبتي، رغم أنّ الجوّ كان لطيفًا، تحمل نسائمه رائحة النهر ونقيق ضفادعه وتغاريد بعض الطيور الليلية.

رشفت من الكأس ثم وضعتها أرضًا، أشعلت سيجارة، نفثت دخانها عاليا، ثمّ نظرت إلى الظلام البعيد خلف السور العالي، كانت نجمات قليلة متناثرة تلمع. وددت لو أستطيع إبصار نجوم أكثر، لعلّها ترسم أمامي طوق هداية، لكنّ الأضواء الصاعدة من الأرض كانت تعيق تحقّق ذلك. الحارسان أعلى البرجين، يدوران في المساحة الضيقة، يعدّان الدقائق البطيئة التي تفصل وقت تحرّرهما واستبدالهما بآخرين. نظر الحارس الذي بالبرج الأيمن إليّ مطوّلًا، رفع يده عن بندقيّته ملوّحًا إليّ، بدا مع تداخل الظلال على وجهه وكأنّه يبتسم، أجبته رافعًا يدي، ثمّ عاد للنظر إلى الأمام من جديد.

عدت أنا كذلك للرشف من القهوة، وسحب الدخان من السيجارة، والنظر مرّة أخرى أعلى السور في الفراغ البعيد، حيث يتمازج الظلام بالأضواء المتناثرة المتنافرة، وكأنّه ميلاد فجر جديد. استمررت في تكرار ذلك الرشف من القهوة وسحب الدخان والنظر إلى البعيد، بينما ذهني يسبح في فراغ عظيم. لم أكن أفكّر في شيء. فقط، هذه اللوحة الليلية التي تغرقني في تفاصيلها. أتأمّلها كأنّها العالم كلّه، والوقت كلّه، ليس حاضره فقط، بل ماضيه ومستقبله.

بعد ربع أو ثلث ساعة، بدأت محرّكات ذهني بالاشتغال، حواسي تلتقط ما يحيط بي وما يجيء من الخارج، لكنّ ذهني لم يعد مهتمًا بتحليل ذلك، وإنّما صار ينظر ويسمع لما يقع بالداخل. كنت كمن يجري حسابات كثيرة بسرعة خارقة، والوقت داخل رأسي صار يقفز بي من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، عبر أمكنة عديدة بتفاصيلها المختلفة، عكس الوقت الذي يجري خارجا، والذي لم أعد أحسّ بمروره، ولعلّه صار يمرّ سريعًا، لأنّي فجأة اكتشفت أنّ حارسي البرجين تبدّلا دون أن أشعر. لكن طواحين عقلي استمرّت تنجز عملها، تنزل إليها من مكان ما حبوب زرع كشلّال هادر، فتدفعه فورا أمامي دقيقًا مطحونًا.

بعد ساعة؟ ساعة ونصف؟ ساعتين؟ نهضت من جلستي. كانت عيناي تنظران إلى ما وراء اللوحة الليلية التي تؤطر ساحة الثكنة، كانتا متيقّظتين، متّسعتين أكثر من المعتاد. وصار لا يصل إلى سمعي إلّا صوت هدير متواصل. ولم يعد برأسي من حسّ غير صدى صفير يواصل الابتعاد. كان كأس القهوة في يدي فارغا باردًا،

ودخان السجائر ما يزال يحلّق حول وجهي. تنهّدت بعمق، ضغطت على أسناني، ثم رميت خطواتي طويلة سريعة صوب غرفتي. كنت قد رسوت أخيرًا على قرار.

في الصباح توجّهت إلى مكتب القيادة، وقدّمت طلب الانتقال إلى مكان آخر، بعد يومين جاءني الردّ، توقّعت أن يعيدوني إلى بوردو، لكنّهم أرسلوني إلى ليون.

التقيت بكاثرين، أخبرتها أنّه تمّ نقلي إلى ليون. قلت لها: "إلى اللقاء يا كاثرين!". لم تقل شيئًا. لكنّي رأيت في عينيها رجاء بالبقاء، بالرجوع، بفعل شيء... تحاشيت النظر أكثر في عينيها، خفت أن تسحبني إليها، فتغرقني في نهر الراين زمنًا طويلًا. لكنّ الزمن لم يلبث إلّا دقائق قليلة، ثمّ مضيت.

كنت أفرّ من جديد، لكنّي لم أكن لأمكث حياتي كلّها هناك، وأترك فردوس بوعياد، ثمّ إنّ المرأة ترحل مع زوجها وليس العكس، أليس كذلك؟ لن أنكر أنّه كان قرارًا صعبًا. لقد وقّعت بيدي على صكّ الابتعاد عن كاثرين، عن حبّها، وعن نعيم الحياة الوردية بالألزاس.

* * * * *

أمضيت أسبوعًا من أيّام إجازتي بالرباط، ثمّ مضيت إلى بوعيّاد، فرح أهل الدوار بمقدمي كالعادة، لكنّي لم أكن مستمتعًا ولا مزهوًّا كسائر المرات. ظللت مشغول البال، منقبض الفؤاد. دون شهية للطعام، أو الكلام، أمضي جلّ وقتي جالسا أسفل أشجار الكاليبتوس خلف الخيمة، أداعب شعر رأسي، وأخطّ بعود على التراب أشكالًا لا

معنى لها. وكان وجه كاثرين وابتسامتها يلاحقانني في كلّ مكان. ثمّ بدأت أتساءل عن الجدوى من هذا الذي أقدمت عليه.

وجدتني أتخبّط في متاهة. أبدأ من كاثرين وأنتهي عندها. أحمل صورتها معي أينما مشيت. وألفظ اسمها مع كلّ تنهيدة تبارح صدري. تلفح وجهي وعنقي نسائم معطّرة بروائح أوّل الصيف، أنظري حولي إلى الحقول المترامية في اصفرار باهت، أتذكر اقتراب موعد الحصاد، أتخيّل الحصّادة وهم يجزّون بمناجلهم السنابل الصفراء في ظهيرة قائظة، يدندنون بألحان كلماتها عصيّة على الفهم، والبهائم تدور في البيادر لإخراج الحبّ من السنبل، فتذرو ريح "الشرقي" اللافحة هباب السنابل على الوجوه المعرّقة، ولا يظهر من خلف زوبعة الذرّ الصفراء غير سراب يزحف ملتويا عبر الأفق، كثعبان عظيم نال منه الظمّأ واحتراق جوف الأرض فخرج منها يبحث عن ظلّ وماء. أتذكّر كلّ ذلك، ثم أتذكّر صفحة الراين اللامعة وضفته الرطبة الخضراء، هواؤه العذب، بلداته العامرة المبتسمة، ولياليه الساحرة المضيئة، ويشرق من خلال ذلك وجه كاثرين الصبوح، ابتسامتها الحانية، وصوتها الهامس الدافئ، فيجثم إحساس كئيب على صدري، وتتوقّف حركة أنفاسي إثره هناك.

ذات ظهيرة، كنت في طريق عودتي إلى الدوار بعد هيام طويل قاد خطواتي للمضي عميقًا في الغابة، وبينما بالكاد تجاوزت القصبة، إذا بي ألمح نساء من الدوار يغسلن الثياب قرب الساقية، فاستقبلت أذناي صدى كلماتهن وضحكاتهن التي تتقاطع قبل أن تصطدم بجدران القصبة المهجورة، كأنّه معزوفة تحفيز عسكرية.

عندما قابلتهن لوّحت إليهن بيدي ملقيًا السلام، فرددن التحية بصوت واحد، ثمّ لم يلبثن إلّا لحظات حتّى عدن لأحاديثهن الضاحكة. فعدت أنا كذلك إلى طريقي. غير أنّ وجهًا من تلك الوجوه المرحّبة ظلّ عالقًا أمامي، تميّزه ابتسامة مشرقة ونظرات هادئة سارحة. ثمّ سريعًا ما تشكّل سؤال من فضول برأسي: "من يا ترى صاحبة هذا الوجه الذي ألحّ في حضوره، جاذبًا روحي خارج هالة الضياع الهائمة فيه؟ إنّي أعرف نسوة الدوار الكبريات، لكنّ اليافعات منهن تختلط وجوههنّ عليّ..."

فور وصولي إلى خيمتنا، بحثت عن الشركي. لم أجده. قالت زوجته إنّه ذهب ليستقي من البئر، لحقت به، قابلته في منتصف الطريق، يجرّ قدميه الثقيلتين كالعادة، ويسوق أمامه حمارين يترنّحان من ثقل ما يحملان، أخذت عنه العصا، أقود عنه الدابتين. ثمّ سألته دون مقدّمات عن الفتاة. وصفتها له، ضحك، قال: "كلّ بنات الدوار مثلما تقول يا بوعزة...".

بقيت ملتصقا به، وهو يفرغ ركوات الماء في الخابيات بمدخل الخيمة. سألني:

- "لماذا تريد معرفة من تكون الفتاة؟"

لم أحره جوابًا.

لمّا انتهى سحبته من يده، وأجلسته إلى جواري على حجر بين دومتين عند مدخل الدوار من جهة الشعبة. قال الشركي وقد راح يتزحزح في جلسته: "إنّهن لن يأتين الآن!". قلت له: "ننتظر قليلًا...". لكنّنا انتظرنا كثيرًا. وقف الشركي عندما نفد صبره: "ما يزال أمامي

الكثير من الشغل... وأنا لا علم لي بما تريد أن تصنع؟" ثمّ تركني ومضى يجرّ نعليه المفلطحين. بقيت في مكاني لبعض الوقت أرمي بحصوات على قطعة قصدير بارزة من الأرض، ثمّ نهضت بدوري ومضيت إلى الخيمة.

لكن بعد عصر ذلك اليوم، لمحت الفتاة تخرج من خيمة العمّ أحمد، ثمّ تعود إليها. فقصدت الشركي قرب الشعبة يكوّم الحشائش اليابسة قبل تحميلها على ظهر الحمار، لمّا رآني أهرول صوبه، توقّف وغرس رؤوس المذراة في الأرض، وجّه إليّ نظرة ممتعضة، وقد توهّج أحد خدّيه بحمرة الشمس السائرة نحو الغروب، قال:

- "إلى أين ستأخذني هذه المرة؟"

- "لا تقلق، لن آخذك إلى أيّ مكان. لكن، اسمع! تلك الفتاة رأيتها تخرج وتدخل خيمة عمّي أحمد."

- "أعد وصفها عليّ!"

فوصفتها له. هذه المرة بدقّة أكبر. لمّا أنهيت كلامي، رفع المذراة عن الأرض، ثمّ عاد إلى حشائشه، قبل أن يبلغني صوته الثقيل:

- "تلك حليمة، بنت العمّ أحمد. لكنّك لم تخبرني لماذا تسأل عنها؟"

بعد أيام قليلة تقدّمت لخطبة حليمة، ثمّ بعدها قرأنا فاتحة الزواج وأشهدنا الشهود، أقمنا حفل عرس امتدّت ولائمه لثلاثة أيّام بلياليها، دُعي إليه الداني والقاصي. ركضت الخيل وبوردت البواريد بالنهار، ورقصت "الشيخات" وغنّين "العيطة" الزعرية، ورقص الرجال رقصة "الهيت" بالليل، وطبّلت النساء على الدفوف

و"الطعارج" وحرّرن الزغاريد طوال اليوم. وقعدت أنا "متربّعًا" داخل فسطاط شاسع، أرتدي جلبابا أبيض تتوازى على طوله خطوط رفيعة صفراء، ينسدل "قبّه" على وجهي، وتحيط بي الشموع والتمور والحليب والحنّاء.

## (الفردوس المفقود)

يونيو سنة ١٩٦٤،

بعد خمس عشرة سنة وطأت فيها قدماي ساحات حرب وسلم، أجواء حرّ وقرّ، أنهيت خدمتي العسكرية مع الجيش الفرنسي.

جمعت أغراضي، ودّعت أصحابي، وودّعت ليون التي أمضيت بها سنتين. ودّعت فرنسا كلّها، ثمّ ركبت الباخرة.

كانت حقائبي مليئة بالهدايا، وكان صندوقي الأخضر مكتظًّا عن آخره بالوثائق والصور والشواهد والميداليات. وكان قلبي ممتلئًا بشوق عنيف للوطن، وذهني منشغلًا بالتفكير في الأرض، في القطعان، في الخيرات، في الجنة التي يمتلكها والدي. وفي حليمة طبعًا. كنت أرى هناك، ببوعيّاد، مستقبلي. لم أعد الآن طفلًا، يتيم الأمّ، تجلده عشيرته بظلم وسادية، ولا شابًّا غرًّا تائها في بلدان الغرباء يركض في معارك الآخرين. لقد اشتدّ عودي، نضج عقلي، وتماسكت مشاعري. أنا اليوم رجل، بذراعه وماله وأوراقه وتاريخه. إنّي الآن أولد من جديد.

أتابع مقدّمة الباخرة تشقّ بعناد طريقًا بين أمواج بحر لا تفتر، وكأنّها الأدهم يعدو بي في سهول الحوامد التي لا يحدّها البصر، بينما رذاذ الموج يعلو ليبلغ وجهي، كأنّه يمسح أسى السنين عن ملامحي. والهدير، هدير البحر وهدير السفينة، يضجّ سمعي، فيطرد كلّ ذكرى حالكة من عقلي. فلا أفكرّ في شيء، إلّا فيما سأغنمه عمّا قريب، فور رجوعي.

عندما نزلت عن ظهر السفينة، كأن أوّل ما قمت به هو أن أكملت إجراءات نهاية الخدمة بمكتب تابع لوزارة الدفاع الفرنسية بالدار البيضاء، بعدها مضيت إلى الرباط. نزلت بالفندق لبضعة أيّام، ثمّ شددت الرحال أخيرًا صوب الديار.

ها أنا عائد يا بوعيّاد، عائد إلى الأرض الممتدّة حدّ النظر، إلى الحقول، إلى الحوض الخصب، إلى القطيع العظيم، عائد لأنعم بخيرات أجدادي، وأهنأ بالمقام بين ظهرانيّ عشيرتي، لا حروب ولا ركض ولا حنين ولا اغتراب.

ها أنا عائد يا حليمة، لم تعد تفصلني عنك إلّا كيلومترات قليلة، ستقطعها الحافلة بي، قبل أن أكمل الطريق على ظهر بغل أو حصان.

ها أنا راجع يا حليمة، لآخذك من يديك، إلى خيمة جديدة، أنصبها بيديّ بأحسن مكان ببوعياد. بل لن أنصب خيمة، سأبني بيتا من الحجارة، سأجعله عند تلك التلة هناك، قرب أشجار الصنوبر، من حيث كان يطلّ عليّ في طفولتي البعيدة وجه القمر، وأحيطه ببستان، كما يصنع أكابر القوم والقيّاد والأثرياء. سيكون الأوّل من نوعه بالدوار، وستكونين أنت السيدة عليه. سأنجب أنا وأنت أبناء وبنات، سيمرحون ويركضون أمام أعيننا في سهول وربى الحوامد الخضراء. لن أدفع بهم إلى سَوق القطيع إلى المراعي حيث تتربّص بهم الذئاب. بل سيكون لنا راعي يسوق القطيع ويحميه. ولن يضطرّوا إلى الفرار صوب بلاد الغرباء، أو التطوّع في معارك الآخرين وحمل السلاح. سيجدون حياتهم ومستقبلهم هنا على أرض وخيرات الأجداد.

ها أنا راجع يا حليمة، يا سرّ شفائي من كاثرين، لأنهي هذا الشوق المتّقد إليك، وأطرد عن القلب الأوجاع، وعن العقل تيه الفكر وسرحان الخيال.

ها أنا أدخل أرض الحوامد، على ظهر الأدهم، بين بغلي الشركي وابنه البكر، كفاتح عظيم، محمّلًا بالهدايا الكثيرة، وبمكافأة نهاية الخدمة السمينة، تعلو الزغاريد مرّة أخرى، وتقرع الدفوف، ويركض الصغار ويصيحون فرحًا بالحلوى العجيبة التي سينالونها والشوكولا، وبالوليمة التي قد تقام مرّة أخرى احتفالًا بمقدمي، بينما انشغلت أنا بالبحث بين وجوه النساء المستقبلات عن وجهك يا حليمة.

بعد أيّام من نزولي ببوعيّاد، كان أوّل أمر مهمّ قمت به، هو أن نَصبتُ والشركي خيمة جديدة على أرض منبسطة عند طرف الدوار، منزلًا لي أنا وحليمة.

ما لبثت سوى بضعة أسابيع، وأنا أتأمّل سقف خيمتنا السوداء، في بدء التفكير الجدّيّ في أمر بناء بيت. بيت ذي جدران وسقف متين وغرف. هناك، عند التلّة المشرفة على الدوار. ولم يكن ليخطر ببالي ما ستحمله الأيّام لي.

كنت، ذات ضحى، على ظهر الأدهم، أراقب المحاريث الخشبية تجرّها الحمير وأحصنة الأشغال، تقلّب الأرض البنّيّة وترسم الأخاديد المتوازية، استعدادًا لموسم الزرع الوشيك، عندما جاء الشركي من جهة خيام الدوار يجترّ رجليه الضخمتين، ويثير من خلفه غيمة منخفضة من الغبار حمراء. توقّف عن يميني، ظلّ صامتًا لوقت محسوس، ثمّ صرّح دون مقدّمات:

- "أبوك يفرّق الأرض يا بوعزّة."

حين التفت جهته أكمل:

- "يهب لهذا، ويبيع للآخر بأبخس الأثمان..."

- "يهب ويبيع لمن؟"

- "لسي المعطي، وامحمد، ولبعض أصحابه، وآخرين من خارج الدوار."

كان هذا يعني شيئًا واحدًا: إن لم نتدارك الأمر، ستنفلت خيراتنا من بين أيدينا إلى غير رجعة.

- "أيعقل هذا؟ ما الذي حلّ بعقله؟ علينا إيقافه إذن."

نظر الشركي إليّ مقطّبًا جبينه، ثمّ عاد ليغرق في صمته المعهود.

في تلك الليلة لمحت والدي والشركي جالسين قرب موقد النار خارج الخيمة، يتذاكران في أمور الحرث ودنوّ فصل الشتاء، انضممت إليهما، لم يكن يدور بذهني إلّا ما حدّثني به الشركي في الصباح. لذلك، لم يمض على جلوسي كثير من الوقت، حتّى أشرت إلى الشركي بحركة من رأسي أن يبادره في الموضوع. لكنّ أخي الأكبر أنكس رأسه. فأخذت زمام الحديث:

- "أبي، نريد أن نحدّثك في أمر."

كنت قلقًا، والشركي بدا متوجّسًا من ردّة فعله.

- "ماذا هناك؟"

- "إنّك تفرّق الأرض، أليس كذلك؟ ونحن أبناؤك، أحقّ بها من الآخرين."

لم أدر متى امتلكت شجاعة الحديث إليه هكذا دون أن يتعثّر لساني بالكلمات.

- "ما هذا الذي تقول يا بوعزّة؟ "

رأيت حمرة جمر موقد النار تنعكس في عينيه.

- "حتى الشركي يوافقني. قل له يا الشركي!"

أخفض الشركي عينيه، ثمّ رفعهما قليلًا، وقال بصوت مخنوق:

- "نخشى أن تضيع الأرض، فلا نجد ما نطعم به أهلنا."

- "آه. قالها قائمًا وقد بزغت عيناه. تتآمران عليّ؟ على والدكما؟ أم ماذا؟ تحسباننني سفيهًا؟ اسمعا أيها الكلبان. هذه الأرض، أرضي أنا، أفعل بها ما أشاء. إن أعجبكما فمرحبًا، وإن كان لا، فاصمتا عن الشكوى والتباكي مثل النساء أو اغربا عني وعن الدوار كلّه، لا أريد أن أرى وجهيكما ولا أن أسمع حسيسكما!"

ثمّ انصرف بعيدا يلتهمه الظلام، وبقيت أنا والشركي نتبادل نظرات صامتة حائرة.

استجمعت شجاعتي من جديد، لمّا تراجع الشركي عن متابعة المعركة رفقتي. بعد يومين، استوقفت والدي صباحًا وهو في طريقه إلى الحقول، كان يرتدي جلبابا غليظا من الصوف، أتذكّر ذلك جيّدا، يغطّي رأسه بقبّ الجلباب، وينتعل حذاء من المطّاط الأسود. وأخبرته أنّي أريد بناء بيت لي عند التلّة المشرفة على الدوار، وأنّي أريد قطعة أرض لإنشاء بستان، كما أريد جزء لي من حقول الحوض الخصب.

كان خيالي يحلّق بعيدًا. بالمال الذي بحوزتي، إضافة إلى الحقول، سأنشئ طاحونة قمح وشعير هنا بالدوار، يجيئها الناس من كلّ حدب وصوب، تكون مشروعًا لاستثمار المال بدل تبذيره.

نظر إليّ بعينين مستعرتين، وبدا وكأنّه يبحث عن الإجابة في بئر عميقة. كانت السماء قد راحت تتلبّد بالغيوم، وكان هناك صوت بقرة تخور بالجوار، توصله إلى أذنيّ رياح متقطّعة، ثمّ تدفعه بعيدًا صوب الشعاب.

- "ابن لك بيتا مكان خيمتك، اجعل له حوشًا وازرع فيه ما شئت من شجر وكروم...

كان شرر عينيه قد انطفأ، لكنّ صوته ظلّ حادًّا وصارمًا. قاطعته:

- "هذا لن ينفع. أريد بستانًا، وحقولًا."

- "ولماذا تريد كلّ هذا؟"، كان صوته قد ازداد شدّة وارتفع يقارع صوت هبوب الرياح.

- "أنا الآن جنديّ متقاعد، عدت بالكثير من المال، وأريد أن أستثمر بعضًا منه في الأرض."

- "معك مال؟ ما حاجتك للأرض إذن؟ إن أردت استثماره افعل ذلك في أي شيء آخر. في التجارة مثلًا، أو اشتر قطيع ماعز أو غنم أو بقر، واجعله يرعى مع القطيع، على الأقل هناك من سيرعاه لك."

قال ذلك وقد همّ منصرفًا. لحقت به والريح قد راحت تنثر ترابًا خفيفًا على وجهينا، والبقرة ما زالت تواصل خوارها، لعلّها

تستجدي عجلها الصغير الذي توارى عن أنظارها، أن يعود للحاق بالقطيع.

- "أنا أعشق الأرض. أعشق بوعيّاد. لا تقل لي اشتر أرضًا بالجوار! كيف أفعل هذا وخيراتنا تفيض على الأرجاء؟"

- "بوعزّة، لا تتعب نفسك بهذا الكلام، ولا ترهقني معك بهذا الهذيان!" صرّح بذلك وقد توقّف الآن، يهدّد بأصبعه: "انس الأمر! وارحمني من موضوع الأرض هذا أنت وأخوك!"

- "ولماذا وهبت قطعًا من الأرض للآخرين، الغرباء يا حسرة! ونحن أبناؤك، من صلبك ودمك؟"

كان قد ابتعد خطوتين أو ثلاث، فلمّا بلغه كلامي هذا، توقّف، ظل يواجهني بظهره لوقت، ثمّ لفّ بسائر جسده تجاهي. كان وجهه قد احتقن بالسواد، واشتدّت عضلات عنقه، تقلّصت ملامحه وانكمش خدّاه، فتجلّت عيناه أكثر جحوظًا، تقذفانني بشرّ وشرر. هبّت زوبعة تراب بيننا، فتحاشيتها محرّكًا رأسي جهة اليمين، مطبقًا جفوني. وما كدت أرجع برأسي وأفتح عينيّ حتّى وجدته قد تقدّم نحوي، وجهه يكاد يلامس وجهي. انتبهت إلى أنّ قلبي راح ينتفض بشدّة داخل صدري. في تلك المساحة الضيقة بيننا، رفع يدًا ترتعش، وأشهر سبّابته من جديد، هذه المرة أمام عينيّ مباشرة، ثمّ خرج صوته مجروحًا، تتقطّع حروفه بين أضراس تعضّ على بعضها، يصاحبه زبد يسيل على شفته ويتطاير على وجهي:

- "اجمع لسانك بين فكّيك أيها الكلب وإلّا بترته لك! واغرب عن وجهي، وإلّا لقيت منّي في هذا الصباح ما لا يعجبك!"

قال ذلك، ثم أدار ظهره معدّلًا قبّ جلبابه على رأسه. بينما ظللت أنا متخشّبًا في مكاني، شفتاي متيبّستان، وعيناي أحسّ بهما قد غارتا، أتابع خطواته الغاضبة تطوي الأرض، تحت سماء قد تلبّدت بالغيوم وبغبار أحمر كثيف.

عندما أقفلت راجعًا إلى الخيمة، أجترّ ذيولا ثقيلة من خيبة وحسرة، رأيت عجلًا صغيرًا أحمر، ينطّ صاعدا الشعبة، يخور بصوت تذروه الرياح، فترجعه إلى أسفل، فلا يصل منه إلى الأسماع غير ما يشبه صدى نحيب مكتوم. لكنّه لم يكن يكترث لما تفعله الرياح بصوته ولما تذروه من تراب على وجهه، عندما بلغ المسلك الذي أسير فيه، تقاطعت معه الطريق، ثم واصل عدوه وخواره عبر الأرض المحروثة، وظللت أراقبه من بين الغبار الذي يجعل النظر إلى البعيد صعبًا، إلى أن التحق بأمّه في القطيع، الذي كان يرعى في حقل من حشائش وأشواك.

* * * * *

لمّا لم يوصلني الجدال مع والدي إلى برّ اتفاق، اكتظّ صدري بمشاعر ثقيلة، وغاصت أفكاري في بحر لجيّ لا قرار له. وجدتني ذات ليلة أفتح الدولاب الصغير المركون بزاوية الخيمة. أخرج الصندوق الأخضر، أقرّب الشمعة، وأنظر داخله إلى المظروف السمين، مليون ونصف مليون فرنك مغربي، مكافأة إنهاء الخدمة العسكرية، قلت لنفسي: "هذا المبلغ الكبير هو السبيل لخروجي من جحيم بوعيّاد."

مع سنا الفجر الأوّل، طرحت عن ظهري الجلباب، وارتديت قميصًا وسريدة وسروال، ثمّ شددت الرحال إلى الرباط.

سألتني حليمة:

- "لماذا تذهب إلى الرباط؟"

كانت صغيرة، أربع عشرة أو خمس عشرة سنة. أجبتها:

- "لغرض أقضيه هناك."

نزلت بفندقي المعتاد بضعة أيّام. اشتريت كوخًا من صفيح بدوّار الدباغ، بحيّ يعقوب المنصور. بالمبلغ الذي بحوزتي كان بإمكاني شراء زنقة كاملة من الأكواخ، والاستثمار فيها، لكنّ ذهني لم يكن يبصر عندها إلّا عبر نفق واحد، الذي يطرحني خارج بوعيّاد من جديد.

فور رجوعي، قلت لحليمة: "استعدّي للرحيل!" سألتني: "إلى أين؟" قلت:"إلى الرباط." لم تسألني لماذا أو كيف... ابتسمت وتفتّحتْ عيناها في حبور. أيّة حمقاء تسأل لماذا وهي ذاهبة للعيش بالرباط؟ إنّها باريس المغرب. حتى وإن سألت، لم أكن لأجيبها. فقد كانت نظرتي مشدودة إلى الأمام، وخلف ظهري كان حلم جميل يهوي كجدار قديم أوهنته العواصف وتقلّبات الزمان.

## (حياة جديدة)

بالرباط، بدأت حياة جديدة. مسكن وزوجة ومال وفير. ماذا يريد المرء أكثر من هذا؟

لكن المقام لم يدم طويلًا هناك. فالحسن، أخ حليمة، الذي كان قد أقام معنا بالبراكة زمنًا ليس بالقصير بعد إتمامه لدراسته الابتدائية بالمدرسة الكتانية بسلا، نجح في مبارة للتعليم بالدار البيضاء، وتمّ تعيينه بالمحمديّة. ثمّ بعد أن استقرّ بها، عرض علينا الالتحاق به.

بالمحمديّة شعرت بالضجر من المكوث بلا عمل، وبدأت رحلة البحث في الحي الصناعي، لكنّي لم أعثر على عمل يلائم وضعي المستقرّ ماديًّا. ومع مرور الأيام كان الإحساس باللاجدوى من التواجد هناك يكبر بصدري ويغشى على مصابيح تفكيري، ولم تمض إلّا أشهر قليلة حتّى أمسكت بيد حليمة وعدنا إلى براكتنا بالرباط.

**سنة ١٩٦٦،**

أنجبت حليمة مولودنا الأوّل، لكنّه سرعان ما فارق الحياة، سودت سماء حياتنا غيوم قاتمة من الحزن والتيه والخواء، ثمّ وكأنّ حليمة فقدت الرغبة في الإنجاب وعيش مرارة الفقد مرة أخرى. إذ بدأت السنون تزحف بنا دون أن يحدث حمل جديد. وظهر الأهل من خلف ضباب سميك، يستحثّوني على ترك حليمة. "إنّها لم تعد تستطيع الإنجاب. طلّقها، وتزوّج أخرى!" تلقي في أذني نسوة من خيمتنا هذه

الكلمات، كلّما قادت الخطوات أهلي إلى عتبة براكتنا لقضاء مصلحة بالرباط، أو حين تجرّنا نحن زيارة أو عيد أو عرس للذهاب إلى بوعياد. ينفثن في رأسي كلمات لهن وقع كالسحر عليّ. وأكاد أركن لهن، كلّما حدّثنني عن ضرورة إنجاب الأبناء، وأنّي قد تجاوزت الثلاثين ولم أرزق بهم بعد.

- "الرجل بلا أولاد يا بوعزة كالشجرة بلا أغصان ولا أوراق!"

- "العيب فيها وليس فيك يا بوعزةّ..."

- "هي لن تخسر شيئًا. أنت الخسران يا بوعزّة..."

- "انظر إلى حالك، سيّد من أسياد الحوامد، الكابران شاف بوعزة بلحَسَن بدون أبناء..."

لأيام عديدة، أغادر البيت صباحًا أو عصرًا هائمًا في شوارع وحواري الرباط، أجلس على صخرة قبالة المحيط، أو على كرسيّ داخل مقهى بالمدينة القديمة، أشابك أصابع يديّ على صدري، وأرخي رجليّ في استكانة تحت الطاولة، أنظر إلى الأرضيّة، وأصيخ السمع لصدى كلماتهن يهدر كارتطام الموج على الصخر برأسي. ولا تفتر عاصفة تلك الكلمات بجمجمتي إلّا حين أهمس لنفسي بأنّ أولئك النسوة على حقّ.

عندما أعود إلى الكوخ وقت الظهيرة أو في المساء، وأنظر إلى عينيّ حليمة الهادئتين الحزينتين، وألحظ ما فعله الشحوب بنضارة محيّاها، وببريق مقلتيها، وهي لم تزل في ريعان شبابها، يرقّ قلبي لها، وأبدأ في تصوّر ما قد يؤول إليه حالها إن أنا استجبت لنداء أولئك النسوة من خيمتنا وأقدمت على تطليقها.

ثمّ بعد زمن، أدركت أنّي في حقيقة الأمر لن أكون قادرًا على التفريط في حليمة ولو أطبقت السماء على الأرض واعتراني شعور بالندم الشديد أنّ أفكارًا قاتمة تجاهها قد راودتني. عندها كانت الأصوات المزعجة تغادر رأسي، وتفسح لروحي السبيل لاستعادة بعض من سكينتها.

* * * * *

**شتاء سنة 1970،**

ظهرت على حليمة أعراض شبيهة بالتي تظهر على النساء عند حدوث حمل، قلت لها إنّك مريضة لا غير، أكلت شيئًا لم تقبله معدتك. لكنّ جاراتنا، زوجة اليانوري، التي كانت تداوم على زيارتها، رمقتها بنظرة طفولية فرحة، ثمّ سارعت إلى إحضار القابلة. بعد نصف ساعة أو أكثر قليلا عادت الجارة ترافقها القابلة بجلباب قرمزيّ متهدّل ومنديل رأس (معكوس). دخلتا البرّاكة تجمعان لهاثهما. طلبت منّي الجارة المغادرة.

وأنا واقف بالزقاق أترقّب دونما قلق أو تطلّع لشيء، جاءت حماة الجارة تهرول في مشيتها، ألقت عليّ السلام ثمّ دخلت، بعدها بدقائق قليلة، اهتز صفيح البراكة بزغرودة، ثمّ ثانية ثمّ ثالثة. أطلّت حماة الجارة من الباب وندهت عليّ للدخول، مشيت سريعًا، فمي مفتوح، وجفوني متّسعة. ما كدت أتجاوز العتبة، حتّى بلغتني تباريك النسوة الثلاث.

نظرت إلى حليمة المستندة إلى وسادة على فراشها، بدت بنظرتها الساهمة في القابلة غير مستوعبة للأمر، وأنا كذلك ظللت عاجزًا عن التصديق، عندها كرّرت أمّي رقية القابلة على مسامعي بأنّ حليمة حبلى، قلت ببداهة:

- "لقد مرّت أربع سنوات، كيف يكون ذلك؟"

بدا أنّ المرأة قد استاءت من ارتيابي، إذ عقدت حاجبيها وهي تنظر إليّ، لكنّ الجارة تدخّلت تصحّح الموقف:

- "أجل يا سي بوعزة! الأمر عجيب. لكنّ أمّي رقية لا تخطئ الحمل!"

رغم ما قالته الجارة، ظلّل الارتياب ساطيًا على دواخلي، بينما عادت البسمة لحليمة، أشرق وجهها، كأنّ نور فجر سطع عليه، يدفع قتامة ليل شتويّ كئيب وبارد بعيدًا، وتفتحت عيناها كما زهرتين نابتتين في سفح جبل رطب، ذات صباح ربيعي مشمس ودافئ. واستمرت أمّي رقية والجارة في التردّد بشكل منتظم للاطمئنان على صحّتها وسيرورة حملها، وانتظرت أنا حتّى رأيت بطنها قد ارتفعت قليلًا عن المعتاد وجاءت أمها لزيارتها، عندها فقط دقّ قلبي بإيقاع لذيذ، وغمر صدري شعور عجيب، رفعت رأسي إلى السماء وقد خطوت خطوتين خارج البراكة، وشعرت بدمع ناعم يتجمّع بمقلتيّ:

- "سبحانك يا الله، ما أعظمك. إنّك على كلّ شيء قدير. لك الحمد، لك الحمد..."

في نفس تلك السنة أنجبت حليمة.

أقمنا حفل العقيقة بخيمتنا ببوعيّاد، لمّا رأيت أولئك النسوة

اللائي حرّضنني على تطليقها، يزغردن، تمعّنت في وجوههن مليّا، ثمّ همست لنفسي قائلا:

- "إنّ كيدكّن لعظيم، إنّ كيدكنّ لعظيم!"

* * * * *

كان مصير محاولاتي الحصول على عمل يناسب مكانتي، كعرّيف رئيس سابق بالجيش الفرنسي، وابن أحد أثرياء قبيلتنا، الإخفاق.

لكنّي أعترف، أنّه لم يكن سعيًا يستحقّ الذكر؛ لأنّ ما انهمكت فيه وحليمة هو الاستمتاع بالحياة الصاخبة، وتبديد الوقت والريالات في شوارع الرباط، أدمنا دور السينما، حيث نقضي ساعات طوال اليوم، دون ملل، نشاهد فيلما هنديًا وراء آخر. ولم نكن نبخل على نفسينا، روحينا المنهكتين، وبيتنا باقتناء ما لذّ وطاب من لحوم وفواكه وتمور وحلويات وملابس وعطور... كان ذلك طوال سنواتنا السبع بالرباط، وما شهدناه خلالها من تقلّبات وأوجاع لم تفتفر نيرانها إلّا حين حبلت حليمة بعد يأس مرير، وكنت أفطن لضرورة عدم الاطمئنان لمال الصندوق الأخضر وتقاعد الجيش الهزيل. وقد كان جاري الينوري، لا يتوانى عن حملي خلفه على درّاجته النارية، والتنقّل بي بين مباني الرباط الإدارية ومصانع الحيّ الصناعي في بحث لي عن عمل، في وقت ما، أتيحت لي فرصة للالتحاق بالجيش المغربي، تحمّست للأمر، لكن لمّا علمت أنّه سيتمّ تعييني بعيدًا عن الرباط تراجعت.

## (الترحال مرة أخرى)

**سنة 1972،**

في النهاية كان مقدّرًا لي الرحيل عن الرباط مرّة أخرى.

بعت برّاكة دوّار الدباغ بيعقوب المنصور، واشتريت أخرى هنا بالرماني، فعلت ذلك، لما صارت حليمة تمرض كثيرًا. فكّرت أنّ جوّ البحر هو السبب، أو ربما ضاقت ذرعًا بزحام المدينة وجلبتها، لم أشأ أن تتدهور صحّتها أكثر، لاسيما لمّا حبلت بابننا الثاني عمر. فبعت الكوخ، وجئنا للعيش بهذه البلدة الهامدة بقاع الوادي، بعيدًا عن صخب المدينة ورطوبة البحر.

اشتريت كوخًا بما كان يسمّى"الدوار"، والذي كان يتشارك وأشجار الصنوبر في تغطّية الضفة الغربية لنهر "هنتاتة". كان بيتنا الجديد عند مدخل الدوار من جهة الحديقة المركزية، قريبًا جدًّا من القنطرة، على وجهة التحديد في نفس المكان الذي يتواجد به الآن مبنى المقاطعة الحضرية الثانية وبيت "لْخليفة". بعد زمن ستصير البرّاكة مثارًا لإعجاب أبناء البلدة، لمّا جعلت لها حديقة مسيّجة بسيقان قصب وأشجار دفلة، يتخلّلها ممشى من الحصى المرصوص، على يمينه وشماله أحواض من نعنع وكزبرة ومقدونس، يربط مدخلها بالدرج عند الباب الداخلي، حيث تستقبلك أُصُص من زهور وحبق. بينما تزيّنت الجدران الصفيحية بدوالي كرمة عنب...

بذلك الكوخ أنجبت حليمة ابننا عمر، ثم البنات بعده. في تلك السنوات الأولى لنا بالرماني انطلقت إلى مزاولة حرف كثيرة.

عملت بناء، وبائع خضروات، وبائع محمّصات لأطفال المدارس من بذور دوّار الشمس والحمّص والفول السوداني كنت أولّ بائع لها بالبلدة كنت أذهب حتى الرباط لإحضارها بالليل، أسهر على إعدادها بالبيت، في الصباح أضعها بقفة الدوم الصفراء، وأسلك الطرق صوب أبواب المدارس.

استمررت لسنوات متنقّلًا بين حرفة وأخرى، حتّى جاء البشير، حارس مدرسة عقبة بن نافع للبنين يطرق باب بيتي بالبشرى التي ستغيّر مجرى حياتي مرّة أخرى. كان ذلك مساء يوم من أواخر صيف ١٩٧٦. أخبرني البشير أنّ مدرسة عائشة الصديقية للبنات يبحثون عن حارس. وقد سأله مديرها إن كان يقترح أحدًا. ثم أكمل:

- "قلت له: نعم، نعم أعرف واحدًا! سي بوعزة، رجل معقول وصادق. ثمّ إنّه واحد من الجنود القدامى بفيتنام... لن أجد خيرًا منه لأقدّمه عليه!"

صمت كأنّما يستجمع أنفاسه، كان ضوء قنديل الزيت القادم من داخل البراكة ينعكس على وجهه فيحيله إلى البرتقالي. اغتنمت لحظة سكوته، أمسكته من ذراعه:

- "أدخل نشرب شايًا!"

سحبته داخل البراكة حين تلكّأ.

- "أحضري أواني الشاي يا حليمة، ثمة ضيف عندنا!"

لمّا أخذنا جلستنا فوق زربية الصوف الحمراء في فناء البرّاكة، ووضعت حليمة أمامي الصينية والبراد وحبوب الشاي والسكر والنعناع، واصل البشير حديثه:

- "لمّا عرف المدير أنّك هو بائع الزريعة للتلاميذ، ابتسم وربّت على كتفي واستحثّني أن أتعجّل في إخبارك، وأن أؤكّد لك أنّه لن ينقصك معه أيّ خير. بل إنّ المدرسة ستفتخر بأن يعمل بها رجل مثلك، حافل تاريخه بالمجد والبطولات... ما رأيك إذن؟"

جاءت حليمة تحمل إبريق الماء المغلي. ثم وصلني صوت البشير مختلطا بصوت انهمار الماء على حبوب الشاي وقطع السكر بقاع البرّاد:

- "ستصير موظّفا تابعا للدولة يا صديقي، ستحصل على راتب شهري، وستضمن تقاعدك!"

تابعت حليمة وهي تحمل البرّاد صوب المطبخ لوضعه على النار.

- "ماذا قلت يا سي بوعزة؟"

كنت أعرف أنّه مستعجل لمعرفة الجواب. لذلك لم أشأ أن أبقيه في حيرة أكثر، راضخًا لأنفة نفسي التي لا مبرّر لها أمام العرض المغري:

- "حسنًا، أخبره أنّي موافق."

ثم رفعت رأسي صوب حليمة التي عادت ببرّاد الشاي المطبوخ، تضعه وسط الصينية. محاولًا كتم فرحتي، قلت لها:

- "أعدّي لنا العشاء يا حليمة!"

## (الحارس القديم)

حين يدنو المساء على بلدة الرماني، أرتدي جلبابي البنيّ الفاتح الأنيق، أضع قبّعة الرأس، أنتعل بلغتي الصفراء الجلديّة، ثمّ أسحب الكرسيّ خارج حوش الدار. أجلس هناك حوالي الساعة، أتابع الشمس تتكئ على جبل الكارة الذي تكسوه غابة الصنوبر كأنها رداء من حرير ناعم. يرتفع بصري يلاحق أسراب اللقالق والبلشون تقفل عائدة إلى أعشاشها، تضرب بأجنحتها كأنّها مجاديف قوارب تمخر جوف السماء، حتّى إذا خفتت الأصوات وفترت حركة الدوّاب، واصطبغ الوجود بحمرة قانية صامتة، وكأنّ الجميع يلبّي نداء السكنية والسكون... عندها فقط، تلفي روحي المضطربة فسحة هانئة للتأمّل في أشياء كثيرة وأمور أكثر. أسأل نفسي في كلّ مرّة، أجلس فيها قبالة الشمس وهي تميل خلف جبل الكارة المنتصب كجدار يكاد يطبق على البلدة: هل هذا كلّ ما أستحقّه بعد كلّ هذا العمر؟ تقاعدان هزيلان؟ فرنسا التي ضحيّت بحياتي في سبيل مجدها تجازيني بألف وخمسمائة درهم كلّ ثلاثة أشهر؟ خمس عشرة سنة من الخدمة في الجيش الفرنسي، وما شهدته من معارك ومطاردات وترحال دائم ونوم قليل غير هانئ...، لا تساوي غير معاش خمسمائة درهم في الشهر؟ هل يجب أن أكون فرنسيًا حتّى يحقّ لي الحصول على معاش يليق بمحارب قديم؟ لقد حاربنا نحن المغاربة في الصفوف الأولى لجيش فرنسا والمعارك محتدمة. أليس أولى بنا أن نحظى بالجزاء الأوفر؟ فرنسا بلد العدالة، ألا يقول الفرنسيون ذلك؟ لكنّي لا أرى في

هذا أيّة عدالة... وما زاد الأفق أمامي ضيقا هو حصولي على ألف درهم فقط، كمعاش عن العمل بالمدرسة. أنا عاجز عن إيجاد حلول بديلة. عاجز عن التفكير. بعد الستين تصير مزاولة عمل جديد أمرًا صعبًا.

كنت قد أمضيت خمس عشرة سنة بمدرسة عائشة الصديقية للبنات بحيّ السعادة لمّا حان وقت إحالتي على المعاش.

كانت سنوات لتربية الأبناء وتعليمهم، الأولاد حصلوا على وظائف، والبنات تعلّمن قليلًا ودَنَوْنَ من سنّ الزواج، ربما كنت راضيًا مرتاحًا، وأنا أتنقّل بين باب المدرسة وساحاتها وأقسامها. محاطًا بجلبة الأطفال وتقدير الكبار. كانت الخمس عشرة سنة تلك قطعة من الحياة، كما كانت نظيرتها بالجيش الفرنسي. وكما كانت أيضًا العشر سنوات بينهما، طبيعة العمل الذي تزاوله، وأين وكيف ومع من تزاوله، وما تربح منه، ماديًّا ومعنويًا، أشياء تتدخّل جليًّا في تشكيل أبعاد أيّامك، شهورك وسنينك، ومن ثمة أزمنة حياتك.

مضت سنة أولى شحيحة قبل أن أحصل على أوّل راتب عن تقاعدي الجديد.

شعرت وأنا أعدّ الأيام والأسابيع والشهور في انتظار تسوية معاشي عن الخدمة بالمدرسة، أنّ الدنيا خاوية من حولي، وكأنّي واقف في قعر فسيح عميق، وأقول: بعد هذه السنين الطوال، وما قدّمته من تفان وتضحيات وخدمات، وجب أن أكون فوق، عند قمّة صفاء الذهن والهناء، وليس أن أجد نفسي منسيًّا، مرميًّا على هامش هذا الزمن الجديد. إنّه زمن مغيار للأزمنة الأخرى التي عشتها، لم تعد الفرص

سانحة كما كانت، والناس أحلامهم كبرت، وصارت تثير في النفس القلق. إنّهم يحلمون وهم يلهثون، نظراتهم قاسية مخيفة، وأحاديثهم لا تحمل في الغالب ما يثلج الصدر أو يزيل الهمّ. إنّهم كثيرو الشكوى، ولا يتوقّفون عن سبّ الدنيا، لقد كنت بين أسوار المدرسة في معزل عن حياة الآخرين، حتّى حين أعود منها وأذهب إلى المقهى مساء، وفي أيّام الآحاد والعطل، لم أصطدم بهذا العالم الذي لا تبشّر وجوهه العابسة بالخير. أو لعلّ نظرتي له هي التي تغّيرت، زالت عنها حجب الأمان، فانكشفت لها الحقائق البشعة. والحقيقة الأولى والأهمّ هي أنّ الألف وخمسمائة درهم، التي تصلني كلّ ثلاثة أشهر من وزارة الدفاع الفرنسية، يتوجّب عليّ تقسيمها في كلّ مرة على اثنا عشر سوقًا (أسبوعًا)، لأسدّ جوع سبعة أفواه، أنا وزوجتي وأبنائي الخمسة.

تمّت تسوية معاشي الجديد، بعد شهور عجاف. انتعش مدخولي قليلًا، لكنّه ظلّ غير مجد أمام صرامة الحياة. وعقلي سقط في دوّامة تيه جديد، حيرة وأسف على ما مضى من حياتي لا يوصلان لشيء، ثمّ تزوّج الأبناء، تزوّج محمّد أوّلا، قبل أخيه الأكبر عمر، كان زواجًا من العائلة، وكان مصيره الفشل، ثمّ تزوّج ثانية، ولمّا انتقل للعمل مدرّسًا بالجوار، أقام ببيت قريب من بيتنا. وأنجب الأبناء، أحفادي، هؤلاء نشأوا في حضني، قُرَرُ عينٍ أخرى لي بالحياة.

أحدّق في قرص الشمس الأحمر، ترمش جفوني لتقاوم سطوته؟ أم لتحبس انهمار دمعتين تتشكلان بمقلتيّ؟ أشيح بوجهي عنه في اتجاه أشجار غابة جبل الكارة التي بدأت تغرق في ظلام الظلال.

# (المحارب القديم)

كنت كلّما فتحت الصندوق الأخضر، وأخرجت منه الأوراق التي يريد ابني محمّد أخذ نسخ عنها، من أجل مراسلاته لوزارة الدفاع الفرنسية، إلّا ونطّت الذكريات السحيقة، تسرح بي بعيدًا، تقتلعني من مكاني، وتقذف بي خارج الزمن الحاضر. أخبره أنّه يرهق قلبي، ويعكّر صفاء ذهني، كلّما يضطرّني لفتح الصندوق. لكنّه لا يكترث لشكواي. يقول إنّ الأولى بنا الآن هو أن نواصل النضال لاسترداد الحقّ المهضوم.

لكنّي كنت أراه قد تمادى أكثر من اللازم. فحين لم تجد مراسلته تلك شيئًا، غير إزعاج أولئك الذين يراسلهم بها، بدأ برفع دعاوى لدى المحكمة الإدارية بباريس ضدّ وزارة الدفاع الفرنسية. ألم أقل لك إنّ حماسة شباب هذه الأيّام ترمي بعقولهم بعيدًا؟ ماذا تظنّون أنتم شباب هذه الأيّام أنّ شكواكم وامتعاضكم سيغيّر من أحوالكم نحو الأفضل؟ لقد مكث محمّد لسنين يرفع الدعاوى ويستأنف الأحكام الصادرة، ويعود مرّة أخرى لمراسلات جديدة، لكنّ الفرج، سيجيء عبر باب آخر، كأنّ الله يقول لك اعمل بإيمان وإلحاح، حتّى وإن لم يوصلك عملك هذا إلى شيء، فأنا سأجازيك من حيث لا تحتسب. وهذا ما يُحسب لابني محمّد، أنّه ظلّ مؤمنًا أنّ الله لن يخيّب ظنّنا ما دمنا نواصل السعي وراء ما نبتغي. وهذا ما حدث فعلًا. ففي سنة ٢٠٠٨، كنت أنا ومحمّد بمقرّ السفارة الفرنسية بالرباط، أوقّع على أوراق تسوية وضعيّة تقاعدي. أخيرًا سأتقاضى

مثلما يتقاضى جنديّ فرنسيّ متقاعد، فيما بعد سيخبرني محمّد، أنّ فيلمًا عن تضحيات الجنود المغاربة والجزائريين وغيرهم، الذين كانوا بالجيش الفرنسي، في مواجهة الألمان في الحرب العالمية الثانية، هو ما دفع بالرئيس الفرنسي جاك شيراك بأن يصدر قرار المساواة هذا، بيننا نحن جنود المستعمرات وبين الجنود الفرنسيين.

حسنًا، إن سألتني هل أن راضٍ عن حالي اليوم؟ سأقول لك: الحمد لله. وسترى ابتسامة عريضة على وجهي؛ لديّ أولاد حظوا بأحسن تربية وتعليم، وحصلوا على وظائف جيّدة، والبنات في بيوت أزواجهن لا ينقصهنّ خير، وصار لدي اليوم أحفاد أيضًا. تقول لي حليمة: "عجبًا، لقد كنت عطوفًا بأبنائك، رغم كلّ الذي لاقيت من قسوة أهلك!".

إنّ أكثر شيء أأسف عليه اليوم، هو ضياع خيرات أبي، لقد توفيّ سنة ١٩٨٢، ولم نحظ بشيء. لقد أضاع كلّ شيء، هل تعلم أين انتهى المطاف بأخي الشركي، بزوجتين وخمسة عشر ابنا؟ لقد انتهى به الأمر بالعرجات قرب سلا. هناك أين نفى نفسه وأهله، كما فعلت أنا من قبل، خارج الأرض والديار.

اليوم، وكما السنوات الماضية، التي أعقبت تقاعدي من المدرسة، أسحب كرسيّي، عندما تحلّ المساءات الجميلة، أراقب الشمس الغاربة، تحادي جبل الكارة، وأفكّر في محطّات حياتي الكثيرة. ففي كلّ مرة، لم تكن الحياة تجري بي وفق ما كنت أشتهي. هل عليّ أن أعدّ الخيبات، أم أتوقّف عن النظر إلى نصف الكأس الفارغ، وأنظر إلى ما حقّقت، لعلّي كنت أخرج منتصرًا مع كلّ

انعطاف من انعطافات حياتي، ودون أن أدرك ذلك في وقته. فأنا لم أكن محاربًا في الهند الصينية فقط، بل كنت محاربًا في معارك الحياة الكثيرة. ولعلّ معاركها كانت أشدّ ضراوة من معارك الحروب الحقيقيّة التي خضتها.

تمّت بعونٍ من الله
في تمارة، المغرب
أكتوبر 2020

توفيق باميدا